كتاب الهلال

أفكار تافهة لرجل كسول

تأليف: چيروم ك. چيروم • ترجمة: د. أحمد مستجير





سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٩٤ - ربيع أول - يونيه ٢٠٠٠

NO - 594 - JU - 2000

اسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الاردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ابو ظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

هذه ترجمة كتاب :

Idle thoughts of an idle fellow

تأليف :

Jerome K. Jerome (1889)

وقد تمت الترجمة عن طبعة دار آروسميث التى صدرت عام ١٩٢٦



الإهداء

إلى أعز وأحب صديق .. صديق أيامى السعيدة وأيامى التعيسة ..

إلى الصـديق الذى طالما اختلف معى عند بدء تعارفنا ، ليصبح أقرب الرفاق إلى قلبى ..

إلى الصـديق الذى لا يزعجنى أبدا فينتقم منى ، بالرغم من أننى كثيرا ما أطفأت توهجه ..

إلى الصـديق الذى يلقى كل تلك المعاملة البـاردة من كل نسـاء المنزل ، وتحدجه الكلاب بنظرات الارتياب ، ثم يظل رغم ذلك قريبا دوما إلى صدرى ، بل وحتى يضمخنى برائحة صداقة عميقة ...

إلى الصـديق الذى لا يحكى لى أبدا عن أخطائى ، الذى لم يحاول يوما أن يقترض منى قرشاً ، والذى أبداً لا يتحدث عن نفسه ..

إلى رفيق أوقاتى الكسولة ، مسكن أحزانى ، وحافظ سر أفراحى وآمالى ..

إلى أقدم وأضخم غليون لدى ...

أهدى هذا المؤلف الصغير .. عرفاناً وحبا ..



مقدمة

بعد أن اطلع صديق أو صديقان على مسودة هذه الأوراق ، ورأيا أنها ليست سيئة للغاية ، وبعد أن وعدنى بعض معارفى بشراء الكتاب إذا حدث أن ظهر يوما ، فإننى أشعر بأنه لم يعد من حقى أن أتأخر فى نشره . والواقع أنه لولا هذا المطلب الشعبى لما أقدمت على عرض «أفكارى التافهة» هذه كزاد ذهنى لكل من يتحدث الإنجليزية على ظهر البسيطة .

إن ما يطلبه القارئ من الكتاب فى أيامنا هذه هو أن يرفع من مستواه ، وأن يعلمه ، وأن يهذبه . وهذا الكتاب لن يهذب ولا حتى بقرة، ولا يمكننى بضمير مستريح أن أوصى به لأى غرض نافع ، أيا كان . وكل ما يمكننى أن أنصح به هو أن تتناوله لتقرأ فيه نصف ساعة بعد أن ترهقك القراءة الجادة . سيكون ذلك تنويعاً يدفع عنك السأم .

ج . ك . ج



(١)
عن الإفلاس

إنه لشىء غريب حقا .. جلست الآن وفى نيتى أن أكتب شيئا ذكيا مبتكرا ، لكننى أبدا لم أستطع أن أفكر فى أى شىء ذكى - على الأقل فى هذه اللحظة. إن كل ما يشغل ذهنى الآن هو حالة الإفلاس التى أعيشها . أعتقد أن السبب هو أننى وضعت يدى فى جيبى . إننى أجلس دائما ويدى فى جيبى - إلا إذا كنت فى صحبة شقيقتى ، أو بنت عمى ، أو عمتى ، ذلك أن أيا من هذه النسوة تثير معى من الشجار ، أو من الحوار البليغ ، ما يجعلنى أستسلم فأدفع بها خارجا - أقصد يدى بالطبع . يعترضن لأن هذا ليس من الأدب . وليلعننى الله إن كنت أفهم السبب فى ذلك . أفهم أن يكون من قلة الأدب أن تضع يدك فى جيب غيرك (أو هكذا سيرى غيرك) ، فبالله عليكم أيها المتحذلقون ، لماذا أنعت بقلة الأدب إذا أنا ، وضعت يدى أنا ، فى جيبى أنا ؟! .. لكن ، ربما كنتم على حق على أية حال ، فلقد تذكرت الآن أننى قد سمعت البعض يدمدمون فى وحشية عندما أفعل ذلك . كان هذا البعض من كبار السن . ونحن الشباب - كقاعدة - لا يمكن أن يستريح لنا بال إلا وأيدينا فى جيوبنا . انعتونا - كما تحبون - بالسماجة والوقاحة ، لكن اتركونا نضع أيدينا فى جيوب بنطلوناتنا ، ويا حبذا لو كان بالجيب

الأيمن بعض الفكة ، وبالأيسر كبشة من المفاتيح . كذا يا أصدقاء نستطيع أن نواجه العالم .

يصعب فى الواقع أن تعرف ما تفعله بيدك - حتى لو كانت فى جيبك وكان جيبك خاليا . منذ سنين ، أيام كان رأسمالى متدنيا لا يزيد عن قطعة يقال لها «بريزة» ، كنت أتهور فأنفق منها قرشا ، لا لسبب إلا لكى أحصل على الفكة فأشخلل بها ، إنك لا تكاد تشعر بالإفلاس المدقع إذا كان جيبك يحمل تسعة قروش فكة ، لا قطعة واحدة يقال لها «بريزة» . لو أننى كنت الغِرَّ المعدم الذى لا يمتلك سوى قرش ، ذاك الذى يسخر منه أمثالى من ذوى المقام الرفيع ، إذن لقمت بفك القرش إلى نصفين .

لدىَّ من الخبرة ما يكفى كى أتحدث بثقة عن موضوع الإفلاس . كنت ممثلا قرويا . فإذا ما طلبت منى بعض البيانات الإضافية - وما أظنك بفاعل - فسأضيف أننى كنت رجلا ذا «علاقة بالصحافة» . عشت على خمسة عشر شلنا فى الأسبوع ، وعشت أسبوعا بعشرة شلنات (واقترضت الخمسة) . وعشت أسبوعين بثمن معطف .

عجيب حقا ما يقدمه لك الإفلاس من تبصر فى شئون الاقتصاد المنزلى . إذا أردت أن تعرف قيمة النقود . فلتجرب أن تحيا على خمسة عشر شلنا فى الأسبوع ، ثم حاول أن ترى كم تستطيع أن تقتصد من أجل الملابس والاستجمام . ستكتشف أنه من الحكمة أن تنتظر أمام البائع لتأخذ مليما تبقى لك ، وأنه من الحكمة أن تمشى ميلا لتوفر

قرشا ، وأن كوب البيرة ليس إلا بنداً من بنود الرفاهية لا تغامر بشربه إلا فى المناسبات النادرة . وأن القميص يمكن أن يستخدم أربعة أيام .

لتكن هذه التجربة إذن قبل أن تتزوج . ستكون خبرة رائعة . دع ابنك وريثك يحاولها أيضا قبل أن ترسله إلى الجامعة . عندئذ فلن يبرطم إذا ما منحته مائة جنيه فى العام كمصروف يد . هناك من الخلق من تفيده كثيرا مثل هذه التجربة . هناك ذاك الشخص الخجول الرقيق الذى يرفض أن يأكل الضأن المشوى كما لو كان لحم قطط ! . إنك تقابل أمثال هؤلاء التعساء فى كل حين ، وإن كنت لا تجدهم - والحمد لله - إلا فى تلك المجتمعات المخيفة الرائعة التى لا يعرفها إلا الكاتبات الروائيات . لم أر قط واحداً من هذه المخلوقات البشرية ينظر إلى ما تحمله قائمة الطعام ، وإننى لأشعر برغبة محمومة فى أن أجره من قفاه إلى واحدة من تلك الحانات الشعبية فى «الويست إند» ، ثم أن أدفع فى حلقه أكلة بستة قروش : قطعة من بودنج اللحم البقرى (بأربعة قروش) وقدراً من البطاطس (بقرش) ونصف لتر من البيرة (بقرش) ، ذلك أنه إذا ما ذكر ذلك (ونحن نعرف أن شذا البيرة المختلط برائحة التبغ وعبير المشويات يترك انطباعا حيا لا ينسى) فقد لا يترفع كثيرا فى المستقبل إذا ما قدم إليه الطعام . ثم هناك ذلك الشخص المسرف الذى يتساهل كثيرا فى أمور الفكة ، ثم لا يفكر أبدا فى أن يدفع ما اقترضه . هذه التجربة قد تعلمه شيئا من الحكمة . «إننى لا أعطى للجرسون بقشيشا يقل عن الشلن . أنت لا تستطيع أن تمنحه أقل من ذلك . أليس كذلك؟». هكذا أخبرنى كاتب حكومى شاب كنت أتناول معه وجبة عشاء منذ أيام

فى شارع ريجنت . وافقته على أنه من المستحيل أن تمنحه أربعة قروش ونصف . لكننى أذكر أننى قد اصطحبته مرة لنأكل فى مطعم أعرفه قرب كوفنت جاردن ، حيث يقوم الجرسون - إتقانا لعمله - بتشمير أكمامه ، القذرة حقا ، حال اقتراب الشهر من نهايته .أنا أعرف هذا الجرسون جيدا وأعرف أنك إذا ما منحته ما يزيد عن قرش فإنه يقوم فى التو واللحظة بمصافحتك تعبيرا عن عظيم تقديره . هذا أمر أعرفه تماما . وهو لم يصافح الأخ المذكور .

كُتب الكثير الظريف عن الإفلاس ، و رغم ذلك فهو ليس ظريفا ! .. ليس من الظريف أن تساوم من أجل قرش . ليس من الظريف أن يعتبرك الناس بخيلا شحيحا . ليس من الظريف أن تكون رث الثياب وأن تخجل من مكان سكنك .. لا ، ليس هناك ما هو ظريف فى الفقر - بالنسبة للفقير ، إنه الجحيم للشخص الحساس . وكم من رجال شجعان لهم بطولاتهم الهرقلية ، كسر الفقر قلوبهم بآلامه الحقيرة .

ليست المتاعب ذاتها هى ما يصعب علينا تحمله . من منا يكره أن يخشوشن قليلا - إذا كان هذا هو كل ما يفعله فينا الإفلاس ؟ أكان يهم روبنسون كروزو كثيرا أن يحمل بنطلونه رقعة ؟ وعلى الذكر ، هل كان يرتدى بنطلونا من أصله ؟ أنا قد نسيت . أم تراه كان يتجول كما نراه فى المسرحيات ؟ أكان يهمه كثيرا أن تبرز أصابع قدميه من الحذاء؟ ماذا يهمه إن كانت مظلته من القطن طالما كانت تحميه من المطر ؟ لم تكن أسماله البالية تضايقه بالمرة . لم يكن حوله أصدقاء يسخرون منه .

إن الفقر فى حد ذاته أمر تافه ، إنما المؤلم هو أن يعرف الآخرون بفقرك . ليس البرد هو الذى يدفع رجلا بلا معطف إلى الهرولة بسرعة . سيخبرك أنه يعتبر المعاطف غير صحية ، وأنه ضد حمل المظلات من ناحية المبدأ . سيحمر وجهه وهو يخبرك ذلك ، ليس خجلا - لا سمح الله - لأنه يكذب ، فهو يعرف أنك لن تصدقه . من اليسير حقا أن تقول إن الفقر ليس جريمة ، كلا - سوى أن الناس يخجلون منه . لكنه رغم ذلك خطأ فاحش يوقع عليه العقاب . إن الفقير محتقر على طول العالم وعرضه .. يحتقره الشخص العادى كما اللورد ، يزدريه الدهماء كما الخدم ، ولن يستطيع كل كتاب العالم أن يجعلوا منه شخصا محترما . إن المظهر عند الناس هو كل شيء .

يتعود الشخص منا على الفقر ، مثلما يتعود على كل شيء ، بمساعدة طبيب نسميه الزمن ، طبيب يعطيك الدواء على جرعات صغيرة الواحدة تلو الأخرى . تستطيع بنظرة أن تميز المتمرس فى الفقر من حديث العهد به ، بين من خبره وتعود عليه وقاسى منه سنينا ، وبين المبتدىء المسكين الذى يكافح كى يخفى بؤسه ، والذى يعيش فى هم مقيم خشية أن يكتشفه الآخرون . لا شيء يفصح عن الفرق بين هذين مثل الطريقة التى يرهن الشخص بها ساعته . ثمة شاعر لا أذكره يقول : «إن طمأنينة النفس وأنت ترهن شيئا إنما تأتى من التمرس ، لا الصدفة» . ثمة من يذهب إلى محل «عمه» برباطة جأش وهدوء ، تماما كما لو كان يدخل محل الترزى الخاص به ، بل وحتى بهدوء أكثر . يتجه إليه على الفور الموظف المهذب المسئول ، الأمر الذى يثير حفيظة السيدة

التى تقف بجواره فتقول إنها لا تمانع فى الانتظار «إذا كان هو من زبائن المحل القدامى» . والحق أن طريقة عقد الصفقة توحى بضخامتها . ثم هناك من يذهب إلى محل الرهن لأول مرة . إن الطفل إذ يطرح أول أسئلته لهو الثقة بأكملها مقارنة بصديقنا هذا . سيتسكع خارج المحل ، حتى أن ينجح فى جذب انتباه كل متسكعى الحى ، وفى إثارة الشكوك القوية لدى عسكرى الداورية . وأخيرا - وبعد تفحص دقيق لواجهة المحل يوهم به المتفرجين بأنه ينوى أن يشترى سواراً ماسيا أو ما أشبه من هذه التفاهات - أخيرا يدخل المحل محاولا أن يبدو لا مباليا ، ويتخذ بالفعل سيماء الأثرياء . فإذا ما دخل ، تكلم بصوت خفيض يصعب سماعه ، فيكرر كل جملة مرات ومرات . وفى أثناء حديثه المفكك عن «صديقه» ، يصل أخيرا إلى كلمة «قرض» . عندئذ يخبرونه بأن عليه أن يتوجه إلى الخارج ، الباب الأول بعد الناصية . يخرج إذن من المحل وقد احمر منه الوجه حتى ليمكنك أن تستخدمه فى إشعال سيجارتك ، وثمة إحساس أكيد يملؤه بأن كل سكان المنطقة يراقبونه . وما أن يصل إلى المكان الصحيح حتى يكون قد نسى اسمه وعنوانه ، وأصبح فى حالة من البلاهة العضال . فإذا ما سئل كيف تحصل على «هذه» ، تلجلج وتناقض مع نفسه ، حتى ليغدو من قبيل المعجزات ألا يعترف بأنه قد سرقها فى نفس ذلك اليوم . سيخبرونه بأنهم لا يتعاملون فى مثل هذه الأشياء ، وأن الأفضل له أن يقلع عن هذا ، وأن يخرج بأسرع ما يمكن ، وهو ما يقوم بتنفيذه . هو لن يتذكر ما حدث له بعد ذلك إلى أن يجد نفسه فى مكان ما يبعد عن

المحل ثلاثة أميـال ، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الطريقـة التى وصل بها إلى هناك .

وعلى الذكر ، إنه لمن المقرف حقا أن تعتمد على ساعات الفنادق والكنائس لتعرف منها الوقت .. فالأولى عموما تقدم كثيرا ، والأخيرة عموما تؤخر كثيرا . أضف إلى ذلك أن المجهود الذى تبذله لتحظى من الخارج بنظرة خاطفة على ساعة فندق تكتنفه صعوبات جسام . ستدفع الباب برفق لتفتح فرجة ضيقة ثم تحدق بالداخل ، الأمر الذى سيجلب نظرات الازدراء ترمقك بها الساقية ، التى ستضعك فورا فى نفس القائمة التى تضم المتطفلين والمتسولين . كما أنك ستثير قدرا من الإثارة بين فريق المتزوجين من الزبائن . لن ترى الساعة على أية حال ، وعندما تحاول أن تنسحب بهدوء ستخبط رأسك فى الباب . أما الطريقة البديلة الوحيدة فهى أن تقفز إلى أعلى مرة ومرة خارج النافذة ، وأنصحك ألا تفعل ذلك إلا إذا كنت تصطحب آلة موسيقية لترفع عقيرتك بالغناء حتى لا تخيب أمل الشباب بالحى الذين سيلتفون حولك فى ترقب .

وددت لو عرفت أيضا ذلك القانون الغريب للطبيعة ، الذى بمقتضاه يوقفك بالضرورة أحدهم فى الطريق ويسألك عن الوقت ، بعد نصف ساعة من تركك ساعتك «للإصلاح» ، فإذا ما كانت ساعتك فى معصمك فلن تجد من يحركه أدنى فضول ليسألك عن الوقت .

إن سيداتى وسادتى الكرام ، الذين لا يعرفون شيئا عن حالة الإفلاس والعوز - حمى الله رءوسهم البيضاء العجوز جميعا من أن تعرف به - يعتبرون أن رهن الممتلكات هو آخر مراحل التدنى .. أما من

يعرفونه حق المعرفة (وأعتقد أن قرائى قد لاحظوا هذا بلا شك بأنفسهم) فإن الدهشة تتملكهم عندما يقابلون عند محل الرهن كل هذا الخلق ممن لا يتوقعونه ! أنا من ناحيتى أعتبره سلوكا مستقلا يفضل الاقتراض من الأصدقاء ، والواقع أننى أحاول دائما أن أؤكد هذا لكل معارفى الذين يزكون قضية «جنيه أو اثنين حتى بعد باكر» . أشار واحد من هؤلاء مرة بأنه يعارض الرهن من ناحية المبدأ ، وأنا أعتقد أنه لو كان قد صرح بأن نسبة الفائدة هى ما يعترض عليه لكان أقرب إلى الصواب .. إن نسبة ٢٥٪ نسبة مرتفعة حقا .

للإفلاس درجات .. كلنا مفلسون .. كلنا تقريبا . بعضنا مفلس بمبلغ ألف جنيه . والبعض مفلس بمبلغ شلن . وأنا الآن مفلس بمبلغ خمسة جنيهات . أنا سأرد المبلغ فى ظرف يوم أو يومين . ومؤكداً سأرده فى خلال أسبوع على أكثر تقدير . فإذا كان من بين قارئاتى أو قرائى من يتكرم بإقراضى هذا المبلغ ، فسيطوق عنقى بجميله . يمكنكم أن ترسلوا المبلغ على عنوانى داخل ظرف ، فقط أرجوكم أن تغلقوا الظرف جيدا . وسأرسل لكم إيصالا بالاستلام لضمان حقوقكم لدينا .

* * *

(٢)
عن الكآبة

أستطيع أن أتمتع بالشعور بالانقباض ، وهناك شعور ضاف بالرضا عندما تكون تعيسا .. لكن ليس من يحب نوبة من الكآبة . ورغم ذلك فكلنا يصاب بمثل هذه النوبات . أيا كان نوع النوبة ، فإن أحدا لا يدرى لها سببا . ليس ثمة تبرير لها . فلقد تصيبك بعد يوم واحد من وقوعك على ثروة هائلة ، مثلما قد تصيبك فى اليوم التالى لنسيانك مظلتك الحريرية بالقطار . أما أثرها عليك فربما أمكن تشبيهه بما تشعر به إذا ما أصبت بآلام الأسنان وعسر الهضم والأنفلونزا فى آن معا . تصبح غبيا ، ضجرا ، وقحا مع الغرباء ، خطرا على الأصدقاء ، أخرق ، ميالا للبكاء ، مشاكسا ، مؤذيا لنفسك ولكل من هم حولك .

فإذا ما تمكنت منك النوبة فلن تستطيع أن تفعل شيئا ، ولا أن تفكر فى شئ ، لكنك ستحس فى نفس الوقت بضرورة أن تقوم بعمل ما . لن يمكنك أن تجلس ساكنا . ستضع قبعتك فوق رأسك وتخرج لتتمشى ، ما أن تبلغ أول ناصية حتى تتمنى لو أنك لم تخرج ، فتكر راجعا إلى منزلك ، تحاول أن تقرأ ، فتكتشف أن شكسبير ليس إلا كاتبا مبتذلا ،

وأن ثاكرى ممل ، وأن كارلايل عاطفى أكثر من اللازم . تلقي بالكتاب جانبا ، وتجلس تسب الكتّاب واحدا واحدا . تطرد القطة الملعونة من الحجرة ، وترفس الباب مغلقا إياه خلفها . تفكر فى أن تكتب خطابا ، فتبدأ : «خالتى العزيزة . وجدت الآن أن وقتى يسمح لى بخمس دقائق ، فأسرعت أكتب إليك» . لن تجد غير هذه الجملة ، فتجلس أمامها ربع ساعة دون أن يلهمك الله جملة أخرى . تلقى الورقة فى درج مكتبك ، وتقذف بقلمك مفتوحا فوق مفرش المنضدة فتلوثه بالحبر . ثم تنهض وقد قررت أن تقوم بزيارة لعائلة طومسون . تتأهب للخروج وعندما تسحب قفازك تكتشف فجأة أن آل طومسون ليسوا سوى حفنة من البلهاء . هم لا يتعاطون طعام العشاء ، وسيتوقعون أن تحذو حذوهم . تلعنهم فردا فردا ، وتقرر ألا تزورهم .

تحس الآن أنك شخص محطم مسحوق ، وتتمنى أن يأخذك الله إلى سماواته ويريحك . تتخيل نفسك راقدا فى فراش المرض ، ومن حولك كل أصدقائك وأقاربك ينتحبون . تباركهم جميعا - لاسيما الجميلات منهم . سيقدرونك حق قدرك عندما تقضى - هكذا تقول فى سرك - ثم تقارن ، والمرارة تملؤك ، بين ما يبدونه من احترام لك عندما تقضى ، وبين قلة توقيرهم لك الآن .

تتسبب هذه الأفكار فى أن تحس ببعض البهجة ، لكن ذلك لا يستمر طويلا ، إذ سرعان ما تتذكر مدى بلاهتك إن أنت تخيلت للحظة أن هناك من سيحزن من أجلك . بالله من سيهتم حقا بك إذا أنت نُسفت أو شُنقت ، أو تزوجت ، أو غرقت ؟ لا أحد يهتم بك ، لا أحد ! من قدَّرك

يوما حق قدرك ؟ من منحك يوما ما أنت جدير به من تبجيل ؟ تستعيد ماضى حياتك كله . إن الواضح الجلى أنهم جميعا قد أساءوا استخدامك منذ كنت فى المهد صبيا .

تغرق نصف ساعة تتفكر فى هذه القضايا ، فتستشيط غضبا من كل الناس ، لاسيما من شخصك . ولولا تلك الأمور التشريحية التى تعرفها لأعطيت نفسك «شلوتا» . أخيرا يأتى موعد نومك ليخلصك من أى تهور محتمل قد تقوم به ، فتنط صاعدا إلى حجرة نومك ، ثم تخلع ملابسك وتتركها ملقاة حيثما اتفق ، وتطفئ النور ، وتقفز إلى السرير ، وهناك تتقلب وتتشقلب ساعة أو ساعتين ، مغيرا الرتابة ما بين الحين والحين ، إذ تخلع بيجامتك وتقذف بها بعيدا ، ثم تنهض وترتديها ثانية . وأخيرا تمضى فى سبات متقطع مضطرب تتخلله أحلام فظيعة ، لتستيقظ متأخرا صباح اليوم التالى .

هذا - على الأقل - ما نفعله نحن العزاب فى هذه الظروف . أما المتزوجون فلهم طرقهم الأخرى . فهم يشرعون فى التنكيد على زوجاتهم، وفى الدمدمة أثناء تناول الطعام ، ثم أنهم يصرون على أن ينام الأطفال الملاعين فورا . كل هذه الأفعال - التى تسبب لاشك هياجا هائلا بالمنزل - ستؤدى إلى تخفيف شعور الرجل بالكآبة .. سيولى كل اهتمامه إلى باب واحد من أبواب الترويح عن النفس ، هو باب الشجار .

أما أعراض هذه البلوى فتكاد تكون واحدة فى كل الحالات ، لكن التعبير عنها يختلف كثيرا . الشاعر يقول : «إن شعورا بالأسى قد

تملكه» . وهارى يُسرُّ إلى جيمى بتنهدات قلبه الحزين قائلا إنه : «قد أصيب بنوبة هم مقيم» . وأختك لا تعرف ماذا جرى لها هذه الليلة ، فهى تشعر بأنها منحرفة المزاج ، وتطلب من الله أن تنقضى الليلة على خير . وهناك الشاب العادى الذى «قد سعد كثيرا بلقائك أيها الصديق القديم»، لأنه «يشعر بأنه بائس بائس هذا المساء» . أما بالنسبة لى فإننى عادة ما أصرح بأننى «أشعر الليلة بشعور غريب مضطرب» ، وأن «علىَّ أن أخرج» .

وعلى الذكر ، لا تأتى الكآبة إلا فى المساء . فنحن لا نستطيع فى وجود الشمس أن نجلس لنتنهد ونعبس بينما العالم ينطلق مفعما بالحياة . إن هدير العمل يغرق الأصوات الفاتنة للأشباح التى تغنى دوما فى آذاننا مزامير الشجن الخافتة . نحن فى النهار نغضب ، نحزن، نسخط وننقم ، ولكنا أبدا لا نصاب «بالاكتئاب» أو «الانقباض» . فإذا أخفق أمر من الأمور فى العاشرة صباحا ، فإننا ننطلق - أقصد أنك تنطلق - تسب وتشتم ، وتلقى بالأثاث هنا وهناك . فإذا ما أخفق أمر وكانت الساعة العاشرة مساء ، فستمضى لتقرأ شعرا ، أو تجلس وحيدا فى الظلام تفكر فى هذا العالم الفارغ الذى نحيا به .

ليست المشاكل هى ما يسبب الكآبة ، خذها قاعدة ! إن الواقع أقسى من العواطف . قد ننزوى نبكى صورة ، فإذا ما رأينا الأصل أشحنا بوجوهنا عنه . ليس ثمة ترف فى الحزن الحقيقى . إننا لا نلعب بالسيوف الحادة ، لا ولا نحن نضم إلى صدورنا بمحض إرادتنا ثعلبا ذا أنياب ومخالب . فإذا ما أحب شخص أن يجلس حزينا يطيل التفكير

فى محنة ألمت به ، ثم اهتم بأن تظل هذه المحنة دائما خضراء فى ذاكرته ، فلك أن تتأكد أنها لم تعد تؤلمه . ستتهمنى الكثيرات من عزيزاتى المسنات اللائى يرجعن كل يوم يخرجن الأحذية الصغيرة من أدراج يضمخها العطر ، ثم يبكين يتذكرن أقداما طفلة خطت فيها يوما، وستتهمنى شابات ملاح يضعن كل ليلة تحت الوسادة خصلة من شعر كانت تتدلى يوما فوق رأسٍ صبية قبلته الأمواج المالحة حتى الموت ، سيتهمنى هؤلاء بأننى فظ ساخر ، ويقلن إن حديثى كله هراء فى هراء . ورغم ذلك فإننى أعتقد أنهن لو سألن أنفسهن بحق عما إذا كن لا يتمتعن بهذه الأحزان ، فإن الإجابة ستكون «بلى» . إن للدموع حلاوة الضحك عند البعض . إن الرجل - كما تعرف - يتقبل أفراحه فى حزن، أما المرأة فإنها تمضى إلى أبعد من هذا ، هى تتقبل أفراحها فى الحزن ذاته .

أنا لا أسخر ، صدقونى ، حاشا لله أن أسخر من أى شئ يرق القلوب ، فى عالمنا هذا القاسى العجوز . نحن الرجال باردون ، ونحكم العقل دائما ، ولا تصلح لنا نسوة يشبهننا . كلا ، كلا ، يا سيداتى العزيزات . لتبق قلوبكن كما هى ، حساسة رقيقة ، لتكن الزبْد الملطف فوق خبزنا الخشن الجاف . ثم إن الحساسية عند النساء تعادل المزاح لدينا . هن لا يقمن وزنا لهزلنا . وسيكون من الظلم قطعا أن ننكر عليهن أحزانهن . من يستطيع أن يقول إن أسلوبهن فى المتعة ليس فى مثل معقولية أسلوبنا ؟ لماذا نفترض أن جسما سمينا يحمل وجها ملتويا أرجوانيا ، يشير إلى حالة من السعادة أذكى من وجه

متأمل حزين ، يتكئ على يد صغيرة أنيقة بيضاء ، وعينين يغشاهما دمع رقيق، تتأملان عائدتين فى طريق الزمان المعتم ، تذكران ماض خبا ؟! .

أسعد عندما أرى الندم يمشى مع البعض منا كصديق .. أسعد لأننى أعرف أن شفتينا إذا ما عانقتا يوما شفتيه الشاحبتين ، فلابد أن يكون الملح قد اختفى من الدموع وأن المرارة قد نزعت من وجه الحزن الجميل . فإذا ما نظرنا إلى ما كان يعذبنا من شجن ، ولم تستيقظ فى قلوبنا المرارة واليأس ، عرفنا أن الزمن قد مر فوق الجرح بيده ، فالتأم. لن يصبح العبء ثقيلا على قلوبنا إذا لم يتبق من آلامنا القديمة غير ذلك المزيج الحلو من السعادة والشفقة الذى نشعر به إذا ما رأينا عاشقين ، من خلال الضباب الذى فرق بينهما ، وهما يعودان كل يحتضن الآخر ، لتغمرهما أمواه النهر العالية .

يعيد هذا الحديث إلى ذاكرتى ما قالته جورج إليوت عن موضوع انقباض النفس .. تحدثت يوما عن «حزن أمسية صيف» ! يا له من تعبير ساحر ، شأن كل ما أنتجه هذا القلم المبدع ! من منا لم يشعر بهذا السحر الحزين ، إذ يتأمل الشمس وهى تغرب فى هدوء ؟ ينتمى العالم عندئذ إلى الكآبة ، تلك العذراء الغامضة المفكرة التى لا تحب وهج النهار . هى لا تنسل من بستانها «إلا بعد أن يخفت الضوء ويضرب الغراب بجناحيه نحو الغابة الصخرية» . قصرها فى أرض الشفق . هناك تقابلنا ، وعلى البوابة الظليلة تأخذ بيدنا وتمضى بنا إلى عالمها الملغز . لا هيكل لها نراه ، إنما نسمع حفيف أجنحتها ! .

لكن روحها تأتى إلينا حتى فى المدينة الصاخبة . ثمة وجود لها كئيب فى كل شارع طويل معتم . النهر الغامض يزحف كما الشبح تحت القناطر المتشحة بالظلام ، كما لو كان يحمل سرا خفيا فى طيات أمواجه العكرة .

وفى الريف الصامت ، عندما تبدو أطياف الأشجار والشجيرات وقد غلفها الضباب والليل يزحف ، عندما يرفرف جناح الخفاش فى وجوهنا ، عندما ينتحب الطير حزينا عبر الحقول - يغوص فى قلوبنا الشجن ويتعمق . نبدو فى هذه اللحظة وكأننا نقف إلى جوار فراش موت لا نراه. ونسمع فى ترنح أشجار الدردار تأوه يوم مات .

ثمة حزن جليل يسود .. ثمة سلام هائل يغلفنا .. فى ضوئه تتضاءل هموم يومنا وتغدو تافهة . لن نجد ما يستحق الصراع ، فى الخبز أو الجبن ، لا ولا حتى فى القبلات . تتدفق فينا أفكار لا نستطيع أن نبوح بها ، إنما نستطيع فقط أن نستمع إليها . وعندما نقف فى ذلك السكون العميق تحت قبة السماء المظلمة نشعر بأننا أكبر من حياتنا التافهة . لن يصبح هذا العالم مجرد ورشة حقيرة وحوله هذه الستائر المعتمة ، إنما سيغدو معبدا رفيعا فيه نستطيع أن نتعبد ! .

***

(٣)
عن الزهو والاختيال

الكل باطل ، وكلنا مزهو مختال .. زهو النساء كبير ، ومثلهن أيضا الرجال ، بل وأكثر إذا أتيحت لهم الفرصة ! كذا أيضا الأطفال ، بل والأطفال على وجه الخصوص . هناك واحدة من هؤلاء - فى هذه اللحظة بالذات - تدق على رجلى . هى تريد أن تعرف رأيى فى حذائها الجديد . وأنا بصراحة لا أعتقد أنه جميل ، فهو يفتقر إلى التناسق والتقوس وله مظهر ثقيل لا يحتمل (ثم أننى أعتقد أنها تلبس كل فردة منه فى القدم الخطأ) ، لكنى لا أستطيع الآن أن أبوح بهذا . إنها لا تريد نقدا ، إنما تريد إطراء . مضيت فى طلاقة أتحدث عنه حديثا أحسست أنه يهيننى أمام نفسى . لا يرضى هذا الملاك العنيد بغير هذا . حاولت مرة أن أجرب معها مراوغة الصديق ذى الضمير الحى ، فلم أنجح . طلبت منى رأيى فى سلوكها العام وتصرفاتها . كانت القضية التى أثارتها هى : «ما هو رأيك فىَّ ؟ هل أنت راض عنى ؟» . ظننتها فرصة طيبة أن أقدم لها بعض الملاحظات المفيدة عن سلوكياتها الأخيرة، فقلت : «كلا ، أنا لست راضيا عنك» . ذكرتها بما وقع منها صبيحة ذلك اليوم ، وسألتها إن كانت تتوقع من عم عاقل طيب مثلى أن

يرضى عن طفلة أيقظته مع كل أفراد العائلة فى الخامسة صباحا ، وقلبت إبريق الماء ، وتشقلبت بعده على السلم فى السابعة ، وحاولت أن تعطى القطة حماما فى الثامنة ، ثم جلست فوق قبعة والدها فى النصف بعد التاسعة ؟! .

ماذا يا ترى كانت الاستجابة ؟ هل شكرتنى على حديثى الصريح ؟ أتراها تفكرت فيما قلت وقررت أن تنتهج - من تاريخه - حياة أفضل وأنبل ؟ .

كلا ! لقد انطلقت تصرخ وتولول .

وما أن انتهت من ذلك حتى تحولت إلى البذاءة . وقالت :

- أوه ! إنت وحِش .. إنت عم وحش خالص ، ح أقول لماما !

وهو أمر نفذته على الفور .

من ذلك التاريخ وأنا أحجم عن إبداء رأيى إذا ما طلب منى . أبقيه لنفسى ، مفضلا أن أبدى إعجابا لا يُحد بأفعال أى من هؤلاء الأطفال ، بغض النظر عما يستحقونه فعلا . عندئذ تومئ الطفلة برأسها فى استحسان ، وتمضى لتذيع الرأى إلى بقية أفراد العائلة الكريمة . ثم إنها على ما يبدو تستخدمه كمقدمة لأغراض الابتزاز . إذ عادة ما أسمع صوتها من بعيد وهى تقول : «عمى بيقول إنى بنت كويسة ، لازم بقى تعطونى بسكوتة !» .

ها هى ذى تمضى وهى تنظر فى جذل إلى أصابع قدميها وتهمهم : «حلوة !» .. تسعون سنتيمترا من الغرور والخيلاء ، إذا غضضنا النظر عما تحمله من شرور أخرى .

كلهم سـواء هـؤلاء الأطـفال ! أذكر أننى كنت أجلس عصر ذات يوم مشمس فى حديقة بضواحى لندن . فجأة سمعت صوتا ثاقبا عالى النبرة يأتى من نافذة بأحد الأدوار العلوية ينادى شخصا لا أراه : «ستُّو ، ستُّو ، أنا ولد كـويـس خـالص . أنا طرطرت على بنطلون بوب» !! .

لكن الحيوانات هى الأخرى تعجب بنفسها . رأيت مرة كلبا كبيرا يجلس أمام مرآة فى مدخل محل بشارع ريجنت . كان يتأمل صورته وعلى محياه من دلالات الرضا ما لم أره فى حياتى قبلا - إلا فى اجتماعات مجلس الكنيسة ! .

كنت يوما فى زيارة بمنزل ريفى فى وقت كان يجرى فيه الاحتفال بمناسبة ما لا أذكرها . المهم أنهم وضعوا فوق رأس إحدى الأبقار إكليلا من الزهور . حسنا ، أمضت ذات الأربع يومها بطوله تمرح فى بهجة كمثل تلميذة صغيرة تلبس فستانا جديدا . وما أن خلعوا عن رأسها الإكليل حتى صمتت وتجهمت ، واضطروا إلى أن يعيدوا إليها إكليلها حتى تقبل الوقوف للحليب . هذه ليست قصة من وحى الخيال ، إنها قصة حقيقية حدثت .

أما عن القطط ، فإنها تكاد تعادل الإنسان فى الزهو والخيلاء ! عرفت مرة قطة كانت تنهض وتغادر الحجرة إذا ما سمعت من زائر تعليقا يحط من قدرها ، أما إذا سمعت لغة إطراء فإنها تنخرط فى هرير سعيد يستمر ساعة .

أنا أحب القطط . هي حيوانات مسلية دون تعمد منها . ثمة وقار هزلي يكتنفها ، نوع من الكبرياء يحيط بها يقول لك «كيف تجرؤ ؟» أو «دعني وشأني ، لا تلمسني» . لكن ليس حول الكلب ثمة عجرفة ، هو يرحب بالجميع دون استثناء حال مقابلتهم . إذا ما صادفت كلبا من معارفي ، خبطته على رأسه ثم نعته بأحقر الصفات ، وقلبته على ظهره ليبقى راقدا يحدق فاغرا فاه ، ثم إنه لا يجد بأسا فيما فعلته به .

آه لو فعلت ذلك مع قطة ! ستغضب منك وتخاصمك فلا تتحدث إليك طول حياتك . كلا ، إذا أردت أن تكسب ود قطة ، فلابد أن تعرف تماما ماذا أنت بصدده ، وأن تمضي فيه بحذر . إذا لم تكن لك سابق معرفة بالقطة فأفضل ما تبتدئ به هو أن تقول «تعالى يا قطتي العزيزة» ، ثم تضيف «ديضامس» في نبرة يشوبها الحنان الرقيق . صحيح أن هذه الكلمة الأخيرة لا تعني شيئا لديك ، أو لديها ، لكن ما تحويه من حنان سينقل ما تحمله أنت من روح طيبة نحوها ، عندئذ ستتحرك مشاعرها وترفع ظهرها ، وتحك أنفها فيك - إذا كنت حسن السلوك ذا مظهر معقول . فإذا ما بلغت الأمور هذه المرحلة ، فلقد تجازف بأن تربتها بلطف تحت ذقنها ، وأن تداعب جانب رأسها . وهنا ستغرز القطة الذكية مخالبها في رجليك . يتم كل هذا في جو من الصداقة والعواطف الجياشة ، ربما عبرت عنه هذه المقطوعة الشعرية الرائعة :

لكم أحب قطتى الصغيرة ، ذات الفراء الدافئ ...
هى لا تؤذينى ، طالما كنت لا أضايقها ..
ألاطفها ، أربت عليها ، وأقدم لها الطعام ..
فتحبنى وتحبنى لأننى شخص طيب ..

يعطينا السطران الأخيران تبصرا حقيقيا فى مفهوم القطة عن طيبة البشر . الواضح أن رأيها هو أن الطيبة تعنى أن تلاطفها وأن تربت عليها وأن تقدم لها الطعام . أخشى ألا تكون هذه الرؤية الضيقة عن الفضيلة مختصة بالقطط وحدها . فكلنا يميل إلى تبنى هذه النظرة فى تقديره للآخرين . فالرجل الطيب هو الرجل الذى يفعل الشئ الطيب لنا نحن ، والرجل السيئ هو الذى لا يفعل ما نطلبه منه . الحقيقة أننا - كل فرد فينا - نولد ونحن نحمل اقتناعا فطريا بأن العالم بأكمله - بكل من فيه وما فيه - إنما قد خلق كزائدة ملحقة بنا . خلق الله الرجال والنساء ليعجبوا بنا وليلبوا متطلباتنا المختلفة . فأنا - عند نفسى - مركز هذا الكون .. وأنت يا عزيزى القارئ تعتقد أنك مركز الكون . أنت بالنسبة لى قد خلقت فى هذا الوجود كى تقرأ ما أكتبه وتدفع ثمنه . وأنا - فى رأيك - مجرد أداة بعثها الله إلى هذا العالم كى تكتب لك شيئا تقرؤه . أما النجوم - هذه الأعداد التى لا تحصى من العوالم التى تتدفق من حولنا فى هذا السكون الأبدى - فقد وضعت فى أماكنها كى تبدو السماء جميلة لنا أثناء الليل . والقمر - بكل أسراره الغامضة وبوجهه المختفى عنا أبدا - ليس سوى تنظيم جُعل لنا كى نتغزل تحته .

أخشى أن أقول إن معظمنا يشبه ديك مسز بويرز القزم الذى تصور أن الشمس لا تشرق كل صباح إلا لكى تسمعه وهو يؤذن . «إن ما يحرك هذا العالم هو الزهو ، لا سواه» . إننى لا أعتقد أن هناك بين البشر من لا يعجب بنفسه ، وإذا حدث أن وجد هذا الشخص فسيكون إنسانا لا يطاق . سيكون بالطبع رجلا ممتازا ، سنحترمه بلا شك كثيرا ، سيكون شخصا رائعا ، شخصا يمكن أن نضعه فى صندوق زجاجي ليعرض كعينة نادرة ، شخصا يلصق على لوحة مثل تمارين المدرسة ليصبح نموذجا يحتذى .. شخصا يُوقر . ويحترم ، لكنه لن يكون رجلا تحبه ، لن يكون أخا قريبا إلى القلب . قد تكون الملائكة مخلوقات رائعة بطريقتهم ، لكنا نحن البشر - بوضعنا الحالى - قد لا نجد فى صحبتهم إلا الملالة والضجر ، بل إن الناس الطيبين ذاتهم يوقعون الكآبة فى النفس . إننا نقترب من بعضنا بعضا ، ونجد المشاركة الوجدانية ، فى أخطائنا وعيوبنا ، لا فى فضائلنا . إننا نختلف كثيرا فى خصائصنا النبيلة ، ونحن لا نتوحد إلا فى الحماقات . البعض منا تقى ، والبعض منا كريم ، والبعض القليل منا أمين - نسبيا - والبعض الأقل قد يتمتع بصفة الصدق . لكنا نتوحد فى الغرور وفى النقائص . إن الغرور هو إحدى لمسات الطبيعة التى تجعل الحى للحى نسيبا : من الهندى الأحمر المقاتل يفخر بعدد ما يحمله من رءوس الأعداء ، إلى الجنرال الأوروبى يزهو بكوكبة النجوم والنياشين على صدره .. من الصينى الجذلان بطول ضفيرة الشعر على ظهره ، إلى الجميلة فى شوارعنا تتحمل العذاب كى يظل خصرها نحيلا .. من

البغى ترفع فوق رأسها مظلة قديمة ، إلى الأميرة تخطر فى رشاقة وخلفها ذيل ثوب طوله أربعة أمتار .. من هارى يزهو بضحكات الأصدقاء العالية تستقبل مزاحه الفج ، إلى رجل الدولة تدغدغ أذنيه هتافات تمتدح حسن حديثه .. من الأفريقى الأسود بعاجه وزيوته النادرة يقايض بها بضع خرزات زجاجية يعلقها حول رقبته ، إلى الأوروبية تبيع جسمها الأبيض من أجل بضعة أحجار صغيرة ولقب فارغ يسبق اسمها - الكل يخطو ، الكل يقاتل ، الكل يدمى ثم يموت تحت العلم المبهرج للزهو والخيلاء ! .

نعم ، نعم .. الخيلاء هى حقا القوة الدافعة التى تحرك البشرية ، الإطراء هو ما يُسير كل الأمور ! فإذا أردت أن تكسب عاطفة الناس واحترامهم فى هذا العالم فعليك بمداهنتهم ، تملقهم كبارا وبسطاء ، أغنياء وفقراء ، أغبياء وأذكياء ، وستمضى حياتك بنجاح . مجّد فضائل هذا وخطايا ذاك ، امدح كل الناس على كل شئ ، لا سيما على ما ليس فيهم . أظهر للشباب إعجابك بجمالهم ، وللبلهاء إعجابك بذكائهم ، وللأجلاف إعجابك بحسن تربيتهم ، وسيرتفع إلى عنان السماء تقديرهم لنفاذ بصيرتك وفطنتك .

بالإطراء تستطيع أن تأسر الجميع : ذلك الإيرل ذو الحزام (أعتقد أن «الإيرل ذا الحزام» هو التعبير الصحيح ، لا أعرف حقا ما يُعنى بهذا التعبير ، إلا إذا كان يعنى ذلك الإيرل الذى يلبس حزاما لا حمالة، ولا تنس أن البعض منا يلبس الحزام ، وأنا شخصيا لا أحبه إذ عليك أن تبقيه محكما حول خصرك إذا كان له أن يفيد ، وهذا أمر غير مريح)

على كل حال ، أيا كان مثل هذا الإيرل ذى الحزام ، فإننى أستطيع أن أؤكد لك أنك تستطيع أن تتمكن منه بالإطراء ، تماما مثل كل إنسان آخر على ظهر الأرض - من الدوقة إلى الجزار ، من الفلاح إلى الشاعر - والشاعر أسهل بكثير من الفلاح ، لأن الزبْد ينفذ فى خبز القمح أسرع مما ينفذ فى خبز الشعير .

فإذا تحدثت عن الحب ، فإن الإطراء هو دمه وحياته : «املأ الشخص بحب نفسه ، وما سيفيض سيكون من نصيبك» ، هكذا قال فرنسى صادق لا أذكر الآن اسمه على الإطلاق (اللعنة ! أنا لا أستطيع أبدا أن أتذكر الأسماء عندما أحتاجها) . أخبر الفتاة أنها ملاك ، سوى أنها أكثر ملائكية من الملائكة ، أنها إلهة ، سوى أنها تفضل الآلهة - بكثير - جمالا ورفعة ورونقا ، أنها أكثر سحرا من تيتانيا ، وأجمل من فينوس ، وأكثر فتنة من بارثينوب .. باختصار ذكرها بأنها أكثر روعة وبهجة وإشراقا من أى امرأة عاشت أو تعيش أو ستعيش على ظهر هذه الأرض ، وتأكد أنك ستطبع فى قلبها الطيب أثرا رائعا لا يمحى . ياللبريئة الحلوة ، ستصدق كل كلمة قلتها . إن من السهل حقا أن تخدع الغوانى ، بهذه الطريقة .

يا لهن من عزيزات ! هن يكرهن الإطراء - هكذا يقلن - فإذا ما قلت : «آه يا عزيزتى ، إن هذا بالنسبة لك ليس إطراء ، إنه الحقيقة البسيطة الصريحة ، إنكِ بين كل من وطئت أقدامهن هذه الأرض - دون أدنى مبالغة - الأكثر جمالا وحسنا وفتنة وبهاء وكمالا» ، فسيبتسمن

ابتسامة استحسان هادئة ، ثم يتكئ على كتفك القوى ، ويهمهمن قائلات : إنك رغم كل شئ رجل عظيم !

يا لله ! تصور رجلا يحاول الغزل على أساس الصدق المتزمت فقرر ألا ينطق بكلمة إطراء أو مبالغة ، وأن يتلزم بدقة بالحقيقة المضبوطة . تصوره يتأمل عينى حبيبته ، ثم يهمس لها فى رفق قائلا إنها على العموم ليست قبيحة كما هو الحال مع معظم الأخريات ! تخيله يمسك بيدها النحيلة ليؤكد لها أن لونها أسمر وإن تخللته بعض البقع الحمراء ، ثم تخيله يخبرها وهو يضمها إلى صدره أن أنفها - المنتمى إلى النوع المرفوع لأعلى - يبدو جميلا إلى حد ما ، وأن عينيها كما تبدوان له ترتفعان حسب تقديره إلى المستوى المعروف لمثل هذه الأعضاء ! .

كم ستكون فرصته أمام رجل آخر يؤكد لها أن وجهها يشبه وردة أنيقة خجلى ، وأن شعرها شعاع من الشمس اقتنصته بسمتها الحلوة ، وأن عينيها نجمتان حبيبتان من نجوم المساء ؟! .

ثمة طرق مختلفة للإطراء ، وطبيعى أن عليك أن تلتمس الأسلوب الذى يلائم «موضوعك» . البعض يكفيه أن تطرح كل شئ على «بلاطة» ، ومثل هذا لا يحتاج إلا أقل القليل من الصنعة . أما مع ذوى الإحساس الرهيف فإن الأمر يتطلب أن يتم برقة ، وأن يكون بالإيحاء لا بالكلمات . والكثير يفضلونها ملفوفة فى صورة إهانة ، كأن تقول : «آه منك ! يا لك من أبله ، إنك الشخص الذى يدفع آخر قرش فى جيبه لأول شحاذ جائع يقابله» ، لكن البعض الآخر لا يبتلعها إلا إذا كانت من خلال شخص

ثالث ، فإذا أراد (ج) أن يدرك شخصا من هذا النوع - وليكن (أ) - فعليه أن يُسر إلى (ب) - أحد أصدقاء (أ) - بأنه يعتقد أن (أ) هذا شخص رائع ، ثم يتوسل إليه - أي إلى (ب) - أن يبقى هذا سرا فلا يحكيه لأحد ، لاسيما للأخ (أ) . لكن عليك هنا أن تكون متأكدا تماما من أن (ب) هذا شخص موثوق به ، وإلا فقد لا يبلغه فعلا ! .

والغرور - على أية حالة - فضيلة مثلما هو رذيلة ، من السهل أن تحكى الكثير عن مساوئه ، لكنه عاطفة قد توجهنا إلى الطيب مثلما توجهنا إلى الخبيث . ليس الطموح سوى غرور مغلف بغلاف نبيل . إننا نريد أن نحظى بالثناء والإعجاب - أو ما يسمى الشهرة - ومن ثم فإننا نكتب الكتب العظيمة ، ونرسم اللوحات الرائعة ، ونغنى الأغانى العذبة .. نكدح بأيدٍ مشتاقة فى المكتب والمصنع والمعمل .

نود أن نصبح أثرياء ، ليس من أجل التمتع بالراحة والنعيم - فكل ما يحتاجه الشخص للراحة والنعيم لا يتعدى ثمنه فى أى مكان مائتى جنيه سنويا - وإنما من أجل أن يكون بيتنا أوسع وأفضل أثاثا من منزل جارنا ، من أجل أن يكون عدد خيولنا وخدمنا أكثر ، من أجل أن تلبس زوجاتنا وبناتنا أسخف الثياب إن تكن أغلاها ثمنا ، من أجل أن نقيم الولائم المكلفة ثم لا نأكل منها ما يساوى شلِنا . ولكى نفعل هذا فإننا نثرى هذا العالم بأفكارنا الصافية النشطة ، وننشر التجارة بين ناسه ، وننقل الحضارة إلى أبعد ركن من أركانه .

دعنا إذن لا نسئ استخدام غرورنا ، دعنا ننتفع به . إن الشرف ذاته ليس إلا الصورة العليا للغرور . إن هذه الغريزة لا تختص

بالإنسـان وحده ، فـالطاووس مـغرور بنفسـه ، ومثله النسر . الوضيع مـغرور ومثله أيضـا كل بطل . تعـال إليَّ يا أخي ودعنا نـختـال ونزهو ، ضع يدك في يدي ، وليساعد كل منا الآخر كي يزيد من غروره وزهوه . دعنا لا نفاخر بجمال ملابسنا وجمال شعرنا ، وإنما بشجـاعة قلوبنا وبعمل أيدينا ، بالصدق ، بالنقاء ، بالنبالة . دع زهونا يرتفع فلا ننحني لكل تافه وحقير . دعنا نزهو فلا تملؤنا الأنانية والحسد الصغير ، نزهو فـلا ننطق بلفظ فظ أو نفـعل مـا هـو غـيـر كـريم ، نزهو بكوننا رجـالا مخلصين نبـلاء في هذا العـالم المليء بالأوغـاد . دعنا نـختـال بأفكارنا النبيلة وأعمالنا الجليلة وحياتنا الطاهرة ! .

***

(٤)

عن الكفاح فى الحياة

ليس هذا بالضبط هو الموضوع الذى يفكر فيه شخص كسول مثلى، أليس كذلك ؟ لكن الغرباء - كما تعلم - عادة ما يرون أكثر ، هاأنذا أجلس فى التعريشة الظليلة على جانب الطريق، أدخن نرجيلة الرضا ، وأمضغ أوراق التراخى الحلوة ، أتأمل الزحام المحموم وهو يمر أمامى مهرولا متدفقا فوق طريق الحياة العريض .

موكب الحياة هذا المجنون لا يكف أبدا عن الحركة . يمكنك أن تسمع وقع أقدام لا حصر لها وهى تمضى سريعا طوال الليل والنهار.. البعض يجرى ، البعض يمشى ، البعض يتوقف ويعرج ، لكن الكل فى عجلة من أمره ، الكل متلهف فى السباق المحموم ، الكل يجهد حياته ، وجسمه ، وقلبه ، وروحه ، ليبلغ أفق النجاح المتقهقر أبدا ! .

تأملهم يندفعون .. رجالا ونساء ، كهولا وشبابا ، نبلاء وبسطاء ، أثرياء وفقراء ، سعداء وحزانى .. الكل فى عجلة ، الكل مسرع صاخب مندفع، القوى ينحى الضعيف جانبا ، الذكى يتجاوز الغبى ، المتخلف يدفع بمرفقه مَنْ سبقه ، والسابق يضرب بقدمه - وهو يعدو - مَنْ خلفه. دقق النظر وراقب العرض السريع ، راقب هذا الرجل العجوز يحاول

التقاط أنفاسه ، وهذه الفتاة الخجول تدفعها تلك العجوز المتجهمة الملامح ، هذا الشاب المجتهد - بيده كتاب «كيف تنجح فى الحياة» - وهو يسمح للكل أن يسبقوه ، بينما هو يتعثر فى طريقه وعيناه على الكتاب ، هذا الرجل البادى الضجر يمشى الهوينى وفى ذراعه تلك المرأة المتبهرجة ، هذا الصبى ينظر خلفه فى حزن يودع قريته الحلوة ويدرى أنه لن يراها ثانية ، هذا الرجل القوى البنيان يخطو بخطوات ثابتة غير متعجلة ، ذلك المحدودب الظهر بوجهه النحيل يتنقل يجر قدميه بخطوة مسترقة ، ذلك الوغد الداهية ووجهه دائما إلى الأرض يشق سبيله من جانب الطريق إلى الجانب الآخر متصورا أنه يمضى إلى الأمام ، ثم ذلك الشاب ذا الوجه النبيل يقف مترددا ينقل نظره من الأمل البعيد إلى الوحل تحت قدميه.

انظر ! ها تظهر الآن فى المشهد فتاة شقراء ، وجهها الوسيم يزداد تجعدا مع كل خطوة تخطوها ، وهذا رجل أضناه الهم ، ومن بعده غلام يفيض أملا .

حشد متنافر ، حشد متنافر ! .. أمير وشحاذ ، وغد وقديس ، جزار وخباز ، وصانع شمعدانات ، سمكرى وخياط ، فلاح وملاح ، كل يدفع الآخر بمنكبيه . هنا القاضى بباروكته وعباءته ، هنا اليهودى القمَّاش بعمته الداكنة ، هنا الجندى بملابسه القرمزية ، وهنا الحانوتى الصامت بقفازه البالى ، هنا الطالب يقلب أوراقه الشاحبة ، وهنا الممثل العطر وعلى صدره نياشينه المبهرجة ، هنا السياسى الذرب اللسان يصيح بعلاجه التشريعى الذى يصلح لكل شئ ، وهنا «الحاج محمود» بدوانه

الذى يشفى من كل داء . هنا الرأسمالى اللزج ، وهنا الاشتراكى العصبى . هنا رجل العلم وهنا ماسح الأحذية، هنا الشاعر وهنا محصل فواتير المياه ، هنا الوزير وهناك راقص الباليه . هنا صاحب الحانة ذو الأنف الأحمر يروج لخموره ، وهنا من يحاضر عن الاعتدال بخمسين جنيها فى الليلة . هنا قاض وهناك محتال ، هنا راهب وهناك مقامر ، هنا دوقة تتزين بالجواهر وتبتسم فى لباقة ، وهنا صاحب النزل النحيل يثيره الطبخ، وهنا ذلك الشخص المرتعش المختال ، فى أصباغه وملابسه المبهرجة ! .

يتقدمون فى عناء خدا لخدّ ، يندفعون جنبا إلى جنب يصرخون ، يلعبون ، يصلّون ، يضحكون ، يغنون ، يتأوهون ، سرعتهم لا تخفف أبدا، فالسباق أبدا لا ينتهى .. ليس ثمة استراحة لهم على جانب الطريق، ليس ثمة توقف بجوار نافورة تبردهم ولا تحت ظلال خضراء .. قُدما يمضون ، قُدما ، قُدما برغم الحر والزحام والغبار ، لو توقفوا سقطوا وداستهم الأقدام وضاعوا .. قُدما بعقل نابض وأقدام مترنحة ، قُدما حتى يعتلّ القلب وتعشى الأعين ، حتى تُسمع حشرجة متقطعة تقول بأن مكانا قد شغر ! .

ومع ذلك ، ورغم الخطوة القاتلة والطريق الوعر ، من يستطيع أن يبقى بعيدا عن المضمار سوى الكسول والغبى ؟ من يستطيع أن يرى هذه الجلبة المجنونة ولا ينجذب إلى خضمها ؟ لست أنا ! أقر الآن وأعترف بأن التعريشة على جانب الطريق، ونرجيلة الرضا ، وأوراق التراخى، لم تكن الاستعارات الملائمة على الإطلاق ، صحيح أنها تبدو

جميلة وفلسفية ، لكن يؤسفنى أن أبلغك بأننى لست من ذلك النوع الذى يجلس تحت التعريشة يدخن غليونه إذا ما كان ثمة لهو يجرى بالخارج! أعتقد أننى أكثر شبها بذلك الايرلندى الذى رأى حشدا من الناس يتجمع ، فأرسل ابنته لتسأل ما إذا كان ثمة شجار شينشب «لأن والدى يحب - إذا كان الأمر كذلك - أن يساهم فيه !» .

أحب القتال الضارى! أحب أن أراه ! أحب أن أرى الناس يشتركون فيه - يقتحمون طريقهم فى شجاعة ، وعلى نحو لائق - أعنى ألا ينزلقون إليه بالصدفة أو بالخداع . إن هذا يحرك دمى الساكسونى المقاتل ، مثلما كانت تثيرنى حكايات «الفرسان المقاتلين ضد الأهوال» وأنا بعد تلميذ صغير .

والقتال فى معركة الحياة هو أيضا قتال ضد الأهوال . هناك المردة والتنينات فى كل عصر . وليس من السهل اختطاف الصندوق الذهبى الذى تحرسه هذه الكائنات ، كما تقول كتب الروايات ؛ ففيها يلقى الجيرنون نظرة أخيرة على بيت أسلافه ، ويذرف من عينه دمعة ، ثم يمضى لا يلوى على شئ ، ليعود بعد سنين ثلاث وهو يتقلب فى النعيم . لكن المؤلفين لا يُعرفوننا «كيف نجح فى ذلك» ، وهذا أمر يؤسف له ، لأنه لابد وأن يكون مثيرا .

لكنا لن نجد روائيا واحدا فى الألف يحكى لنا القصة الحقيقية للبطل . هم يتسكعون عشر صفحات يصفون حفل شاى ، لكنهم يوجزون تاريخ الحياة فى جملة واحدة مثل «وغدا واحدا من كبار التجار» أو «وأصبح الآن فنانا كبيرا يرقد العالم تحت قدميه» . والواقع

أننا سنجد فى أغانى مسرحية واحدة لجيلبرت ، ما يزيد عما يحويه نصف ما كُتب من روايات السير الذاتية . إنه يحكى لنا كل الخطوات التى ارتقى بها ساعى المكتب حتى أصبح «حاكما بَحرِية الملكة» ، ويصف لنا كيف تمكن محام بلا موكلين من أن يصبح قاضيا عظيما ممتازا «مستعدا للنظر فى قضية النكوث عن الوعد بالزواج» . فى التفاصيل الثانوية - لا فى النتائج الكبيرة - يكمن اهتمامنا بالحياة .

إن المطلوب حقا هو رواية تبين لنا التيارات التحتية الخفية فى سيرة رجل طموح .. كفاحه ، إخفاقه ، آماله ، إحباطاته ، وانتصاراته .. ستلقى مثل هذه الرواية النجاح الباهر . إننى متأكد أن قصة عن السعى وراء النجاح لا تقل إثارة عن قصة عن السعى وراء غادة من لحم ودم ، ستبدو القصتان عند القراءة متشابهتين تماما ، لأن النجاح فى الحق - وكما وصفه الأقدمون - يشبه المرأة كثيرا ، ليس له لا معقولية وتقلب النساء ، ولكنه قريب جدا منهن ، كما أن ملاحقته تكاد تطابق ملاحقتهن . والبيتان التاليان لبين جونسون يوجزان الأمر فى كلمات قليلة :

إذا غازلت المرأة أنكرتك ..

فإذا أهملتها غازلتك ..

إن المرأة لا تمنح حبيبها الاهتمام الكافى حتى يتوقف عن الاهتمام بها ، والأمر يتطلب أن تعامل النجاح بلا مبالاة وتدير له ظهرك حتى يبتسم لك .

لكنك عندئذ لن تهتم كثيرا إن هو ابتسم أو عبس . لماذا لم يبتسم عندما كانت بسمته تهز وتبهج ؟ كل شئ يأتى متأخرا فى هذا العالم .

يقول الطيبون من الناس : إن هذا هو الشئ الصحيح والمناسب ، وإنه إثبات أن الطموح شر كله .

آآخ ، إن الناس الطيبين على خطأ بيّن (هم دائما هكذا ، فليس ثمة موضوع واحد نتفق فيه سويا) . أحب أن أعرف كيف يغدو هذا العالم دون الطموحين ؟! يصبح عالمنا مترهلا كالزلابية ! إنهم الخميرة التى تخمر العالم ليصبح خبزا ، وبدونهم لا يرتفع العالم أبدا . إنهم الفضوليون الذين يستيقظون كل صباح مبكرا ، فيطرقون ويصيحون ويحركون أدوات إذكاء النار حتى ليصبح من المستحيل أن يبقى الآخرون فى أسرّتهم نائمين ! .

أمن الخطأ أن تكون طموحا ، عجبا ! أكان على خطأ كل من حنى الظهر ونزف العرق ليمهد الطريق أمام البشرية كى تمضى قدما جيلا وراء جيل ؟ أكان على خطأ كل من استغل المواهب التى منحها إياه الخالق الوهاب ، فكدح بينما الآخرون يلهون ؟ .

أحرام أن يطلبوا مكافأتهم ؟ لم يمنح الإنسان الصفة الملائكية لإيثار الغير على النفس ، بحيث لا يفكر إلا فى خير الآخرين . لكنهم بعملهم لأنفسهم كانوا يعملون لنا جميعا . إننا مرتبطون بعضنا ببعض ، وليس من يستطيع أن يكدح لنفسه فقط ، إن كل ضربة يضربها لشخصه تساهم فى تشكيل عالمنا .. النهر فى تدفقه إلى الأمام يحرك دولاب الطاحون ، والمرجان يصل القارات ببعضها ، وهو يبنى خلاياه

الصغيرة، الرجل الطموح يخلف نصبا من الرخاء وهو يبنى قاعدة لنفسه . حارب الاسكندر وقيصر لأهداف تخصهما ، ولكنهما نشرا المدنية فى نصف العالم . ابتكر ستيفنسون الآلة البخارية ليبنى ثروته ، وكتب شكسبير مسرحياته من أجل بيت هانئ لمسز شكسبير وللشكاسبة الصغار .

أما القانعون غير الطموحين من الناس فهم على ما يرام بطريقتهم. إنهم يشكلون خلفية رائعة مفيدة ترسم عليها اللوحات الرائعة ، إنهم يوفرون جمهورا محترما - إن لم يكن يتميز بالذكاء - أمامه تلعب الشخصيات النشطة فى عصرهم . لا أستطيع أن أنبس بكلمة واحدة ضد القانعين من الناس ، إذا صمتوا ؛ لكن - بحق السماء - لا تدعهم يثرثرون مختالين ، كما هى عادتهم ، مدعين أنهم النموذج الحقيقى للنوع كله . كلا ، إنهم طفيليون ، إنهم ذكور النحل فى الخلية ، دهماء الشارع المتسكعون ، المتفرجون على الآخرين وهم يعملون ! .

بالله لا تدعهم يتخيلون أيضا - كما هى عادتهم - أنهم فلاسفة فى غاية الحكمة ، وأن القناعة دليل البراعة . قد يكون صحيحا أن «الذهن القانع سعيد فى كل مكان» ، لكن الفرس مثله سعيد حيثما كان ، والنتيجة ؟ أن يوضع أى منهما فى أى مكان ، وأن يعامل بأى طريقة . « أوه ! لا تشغل بالك به» - هكذا يقال - «إنه قانع بما هو فيه، فلا تقلقه بالله عليك !» ، يُهمَل إذن كل قانع ، ليحل محله شخص غير قانع .

إذا ما كنت من الحماقة لتصبح قانعا ، فلا تجعلهم يعرفون ، لكن تذمر أمامهم . إذا كان القليل يكفيك ، فاطلب الكثير ؛ لأنك إن لم تفعل،

فلن تنال شيئا البتة . ليكن ديدنك فى هذا العالم القاعدة التى يتبعها المدعى بالمحكمة فى قضايا التعويض، فتطلب عشرة أمثال ما أنت مستعد لقبوله . فإذا كان يرضيك مائة ، فابدأ بالتأكيد على ألف ؛ لأنك إذا طلبت فى البداية مائة ، فلن تحصل إلا على عشرة .

كان عدم الانتباه إلى هذه الخطة البسيطة هو ما أوصل جان چاك روسو إلى الكارثة .. حدد منتهى أمله فى الحياة ، ببستان فاكهة ، وامرأة لطيفة ، وبقرة . ولم يحقق أبدا أمله ؛ تملَّك البستان ، لكن المرأة لم تكن لطيفة ، ثم أنها استحضرت معها أمها ، ولم يكن ثمة بقرة . لو أنه قرر أن يمتلك ضيعة واسعة ، وبيتا مليئا بالنساء ، ومعرضا للأبقار، فلربما عاش حتى امتلك حديقة مطبخ ، ورأسا من الماشية ، ولربما صادف ذلك الشئ النادر : امرأة لطيفة حقا ! .

يالها من حياة مملة تلك التى يحياها كل قنوع ! يا لثقل وطأة الزمن عليهم ! بحق السماء : بم سيشغلون أفكارهم ، إن كان لديهم ثمة أفكار؟! إن الغذاء العقلى للغالبية العظمى منهم هو قراءة الجريدة والتدخين ، ولربما أضاف البعض الأنشط منهم العزف والخوض فى سيرة الجيران ! .

إنهم لا يعرفون أبدا معنى الإثارة فى التوقع ، لا ، ولا البهجة العارمة فى الجهد يبذل فيحرك نبض الرجل ذى الهدف والأمل والتصميم . إن الحياة لدى الطموح مباراة مشرقة ، مباراة تتطلب كل براعته وطاقته وأعصابه ، مباراة لابد من كسبها على المدى الطويل - بنفاذ البصيرة وباليد الواثقة ، ثم إن تحقيق هذا الكسب يكتنفه من

الشكوك اللذيذة ما يملؤه بالروعة ! إنه يتمتع بها ، كما السباح الماهر في الموج المتلاطم ، كما الرياضى فى حلبة المصارعة ، كما الجندى فى ساحة الوغى .

فلتتحرك إذن يا صديقى ، فلتتحرك ، تحركوا يا سيداتى ويا سادتى .. تحركوا يا صبية ، تحركن يا صبايا ، أفصحوا عن مهاراتكم وجربوا قوتكم ، تحدوا حظكم وأثبتوا شجاعتكم . تحركوا . العرض مستمر إلى الأبد ، والمباراة تمضى أبدا ، والمباراة الحقيقية الوحيدة فى كل هذا العرض - يا سادتى المبجلين المحترمين - هى ما تحدوها النبالة والتدين والشرف . بدأت المباراة منذ العام الأول للتاريخ ، وهى لا تزال تزدهر منذ ذلك التاريخ ! تحركوا ! تحركوا! تحركوا يا سادة واشتركوا فى اللعبة ! هناك جوائز للجميع ، والكل يمكنه الاشتراك فى اللعب . هنا الذهب للرجل ، والشهرة للصبى ، هناك المقام العالى للعذارى ، والبهجة للحمقى ! تحركوا إذن يا سيداتى ويا سادتى تحركوا ! الجوائز للجميع ولن يخسر أحد . سيكسب البعض جائزة ، أما الباقى .. حسنا .. فليتذكروا :

أن نشوة الكفاح ..

هى جائزة المهزومين !!

***

(٥)

عن الكسل

هذا موضوع أزعم أننى فيه خبير متمرس .. أرسلنى والدى وأنا صغير كى أتلقى الحكمة من منبعها ، نظير تسعة جنيهات فى الفصل الدراسى - ولا رسوم إضافية - وكان يقول دائما إنه لم ير فى حياته صبيا مثلى يستطيع أن يقوم بعمل أقل ، فى زمن أطول . أتذكر أيضا جدتى المسكينة وهى تقول - عرضا - إنها لا تتصور أننى سأقوم يوما بأى عمل ليس مطلوبا منى ، بل إن لديها اقتناعا لا يتطرق إليه الشك بأننى سأهمل كل ما يجب على أن أقوم به ، فلا أقوم به .

أخشى أن أقول إننى قد خيبت نصف نبوءة السيدة الجليلة . ليرحمنى الله ! لقد قمت - رغم كسلى - بأعمال كثيرة جدا ما كان على أن أقوم بها ، لكننى أثبت تماما دقة حكمها بالنسبة لإهمال الكثير مما كان لا يصح أن أهمله . كان الكسل دائما هو ميزتى ، أنا لا أنسب لنفسى فضلا فى هذا الموضوع ، إنه موهبة لا يمتلكها إلا القلائل. ثمة الكثيرون من الكسالى والكثيرون من متبلدى الإحساس ، لكن الكسول الأصيل عملة نادرة . هو ليس ذلك الشخص المترهل الذى يضع يده فى جيبه . العكس صحيح . إن الصفة التى تميزه هى أنك تجده دائما مشغولا للقمة !

من المستحيل أن تتمتع بالكسل كما يجب دون أن يكون لديك عمل كثير . ليس ثمة متعة فى ألا تفعل شيئا إذا لم يكن لديك أصلا ما تفعله. إن تبديد الوقت عندئذ سيكون مجرد تأدية واجب ، وسيكون أمرا مرهقا. الكسل يا صديقى - كما القبلة - لا يستحب إلا إذا خُطف .

من سنين طويلة عندما كنت شابا أصبت بمرض عضال - لا أعرف لماذا شُخِّص بأنه عضال ، فلم يكن عندى سوى برد بغيض . لكن يبدو أنه كان شيئا خطيرا ؛ لأن الطبيب ما إن رآنى حتى قال إنه كان على أن أزوره قبل ذلك بشهر ، وأننى لو كنت قد تركت الأمر (أيا كان ذلك الأمر) أسبوعا آخر لوقعت المسئولية كاملة على عاتقى . إنه لشئ غريب حقا ، فعمرى ما استدعيت طبيبا إلا واتضح أننى لو كنت قد تأخرت يوما واحدا لأضحى العلاج ميئوسا منه . إن طبيبنا الفيلسوف الصديق لا يشبه إلا البطل فى الميلودراما ، هو لا يظهر على المسرح إلا فى الوقت المضبوط تماما . إنه مبعوث العناية الإلهية ، لا شك فى ذلك !

حسنا .. أقول إننى كنت مريضا جدا ، وأمرنى الطبيب أن أقضى شهرا فى باكستون ، مع تحذير صريح بألا أفعل شيئا أيا ما كان أثناء وجودى هناك : « إن الراحة هى ما تحتاجه » هكذا قال الطبيب «الراحة التامة» .

بدت لى النصيحة شيئا بهيجا ، قلت لنفسى « الواضح أن هذا الرجل يفهم مرضى تماما » . وتخيلت نفسى أقضى وقتا رائعا .. أربعة أسابيع من المتعة يشوبها البعض القليل من المرض - ليس الكثير من

المرض، إنما قدر منه ضئيل ، قد يكفى لأن يتيح لمسة من المعاناة ، وأن يجعل الأمر شاعريا ! استيقظ متأخرا ، أحتسى كوبا من الكاكاو، وأتعاطى إفطارى بالشبشب والبيچاما، أتمدد على الأرجوحة فى الحديقة ، وأقرأ الروايات العاطفية ذات النهايات الحزينة ، حتى أن يسقط الكتاب من يدى المتراخية ، فأستلقى أحلم ، ناظرا إلى قبة السماء بزرقتها العميقة ، أرقب السحب تتحرك عبرها كالقطن المندوف وهى تطفو كالشراع ، وأستمع إلى حفيف الشجر ونشيد الطيور ، فإذا ما أحسست بالوهن فلم أستطع الخروج ، جلست أستند على الوسائد ، وأمامى النافذة ، أنظر مهزولا ومثيرا للاهتمام ، فتتنهد الصبايا الملاح إذ يلمحننى !

سأمضى مرتين كل يوم - وأنا أجلس على كرسى المرضَى ذى العجلات - إلى طريق الأشجار لاحتسى المياه ! .. آه يا لها من مياه ! لم أكن أدرى عنها شيئا آنئذ ، لكن الفكرة سحرتنى . إن احتساء المياه يبدو وكأنه مرتبط بالصفات العليا من المجتمع ، تصورت أننى سأحبها . لكن .. أووووف ! اسألنى الآن . لقد وصفها سام ويلر بأن «لها طعما كالمكواة الدافئة» ، لكن هذا الوصف لا ينقل إلا فكرة باهتة عما تثيره فى النفس من قرف شنيع . فإذا كان ثمة ما يشفى المريض سريعا ، فهو لا شك معرفته بأن عليه أن يشرب كوبا منها كل صباح حتى يبل ، شربت منها - صافية - ستة أيام متوالية . كادت تقتلنى ، لولا أن اتخذت خطة كنت بمقتضاها أشرب بعد الماء كوبا من البراندى القوى ،

فأحس فورا بالارتياح ! أخبرنى بعض كبار الأطباء فيما بعد أن الكحول كان بالتأكيد يعادل كل آثار الحديد الموجود بالماء ، ولكم أسعدنى أننى قد وقعت على الشئ الصحيح !

لكن «شرب المياه» لم يكن سوى جزء صغير من العذاب الذى قاسيته خلال ذلك الشهر المشهود ، ذلك الشهر الذى كان بغير شك أتعس شهر قضيته فى حياتى . فى ورع اتبعت أوامر الطبيب معظم أيام الشهر . لم أفعل شيئا أيا ما كان غير التكاسل فى المبنى والحديقة، ثم الخروج ساعة أو ساعتين كل يوم على الكرسى ذى العجلات . كان هذا كفيلا بكسر الرتابة لحد ما .. ثمة ما يثير فى الجلوس على هذا الكرسى - لا سيما إذا لم تكن معتادا على هذه الرياضة المنعشة - تفوق ما يبدو للملاحظ العابر . ثمة شعور بالخطر يكتنفك وأنت تجلس عليه ، لا يمكن لغيرك أن يتفهمه . يملؤك فى كل دقيقة اقتناع طاغ بأن الكرسى سيتحطم ، ويتفاقم هذا الشعور كلما وقع بصرك - من مبعدة - على حفرة أو جزء من الطريق رصف حديثا بالحصى . تتخيل أنك ستصطدم بكل مركبة تمر . وما إن تجد نفسك صاعدا ، مرتفعا أو هابطا ، إلا وتبدأ فورا فى التفكير فى احتمال أن يتخلى عنك من يتحكم فى قدرك .. الشخص الذى يدفع الكرسى .

لكن هذه التسلية عجزت - بعد فترة - عن أن تثير فىّ الحيوية ، وأصبح الملل لايطاق . أحسست بذهنى يتهاوى تحت وطأة الضجر ، وذهنى كما تعلم ليس من النوع المتين ، فرأيت أنه من الأفضل ألا أرهقه كثيرا ، وعلى هذا فبعد نحو عشرين يوما ، استيقظت مبكرا ، وتناولت

إفطارا طيبا ، واتجهت مباشرة إلى هيفيلد - وهذه بلدة صغيرة لطيفة مزدحمة تصلها عن طريق واد بهيج ، وبها غادتان مليحتان ، أو على الأقل كان بها عندئذ غادتان مليحتان ، واحدة مرت بى فوق القنطرة ، وأعتقد أنها ابتسمت لى ، والأخرى كانت تقف بباب مفتوح وبين ذراعيها طفل ، وكانت تغدق عليه فيضا لا ينضب من القبلات . لكن هذا كان منذ سنين بعيدة ، وأحسب أنهما الآن قد أصبحتا سمينتين شرستين . فى طريق العودة قابلت رجلا عجوزا يكسر أحجارا ، الأمر الذى أثار اشتياقى إلى استخدام ذراعى ، فعرضت عليه مشروبا كى يسمح لى أن أقوم بعمله .. كان رجلا طيبا ، فسايرنى . ومضيت أضرب الأحجار بكل الطاقة التى تجمعت فى خلال الأسابيع الثلاثة ، وأنجزت فى نصف ساعة قدر ما أنجزه هو فى اليوم كله . والغريب أن هذا لم يثر غيرته .

ما إن بدأت التهور حتى مضيت فيه إلى أبعد مدى . طفقت أخرج كل صباح فى نزهة طويلة ، وكل مساء، لأستمع إلى الفرقة الموسيقية فى السرادق . ورغم ذلك كانت الأيام تمضى بطيئا . حتى حل اليوم الأخير السعيد ، عندما تركت باكستون المصدورة العليلة متجها نحو لندن المفعمة بالحركة والحيوية . نظرت خارج العربة ونحن نعبر هيندون فى المساء ، وأحسست بالدفء يسرى إلى قلبى وأنا أرى الوهج المثير يملأ الفضاء فوق المدينة الرائعة . وعندما وصلت المركبة محطة سان بانكراس ، وانطلق الصخب القديم المألوف يطن من حولى ، سمعت فيه أحلى نغم افتقدته كل تلك الأيام الطويلة .

•

لم أتمتع بالتـأكيد بالكسل طيلة هذا الشـهـر . إننى أحب الكسل عندمـا لا يصح أن أكـون كـسـولا ، لا عندمـا يكون الكسل هو الشئ الوحـيد أمـامى . تلك هـى طبيـعـتى العنيـدة . إن أفضل وقت أقف فيـه وظهرى للمدفـأة أحـسب ديونى ، هو الوقت الذى تعلو فـيـه فوق مكتبى أكوام الرسائل التى تحتاج الرد الفورى . فإذا ما طالت فترة التلكؤ فوق مائدة الطعام ، فاعلم أن أمامى عملا ثقيلا فى المساء . وإذا ما حدث أن كان على أن استيقظ مبكرا فى الصبـاح ، عندئذ – وأكثر من أى وقت آخر – أحب أن أرقد نصف ساعة إضافية فى سريرى .

آه ! ياله من شئ رائع أن تتقلب فى فراشك ثم تنام ثانية ، «خمس دقائق فقط» ! إننى لأعجب حقا ، هل هناك من البشر من يستيقظ فعلا برغبتـه ! هناك من الناس من يستـحـيل على الإطلاق أن يسـتـيـقظ فى الوقت المناسب. فإذا كان الوقت المناسب هو الثامنة صباحا ، ظل راقدا فى فراشه حتى الثامنة والنصف . وإذا مـا تغيرت الظروف وأصبح عليه أن يستيقظ فى الثامنة والنصف ، فلن يترك الفراش قبل التاسعة . مثل هؤلاء يشبهون رجل الدولة الذى قيل إنه كان يتأخر عن مواعيده نصف ساعة بالضبط ، لا تزيد ولا تنقص دقيقة . حاولوا معهم كل الوسـائل ، ابتاعوا لهم «المنبهات» (وهذه مبتكرات ماكرة ، تنطلق فى الوقت الخطأ، لتوقظ الشخص الخطأ) . طلبوا من سارة جين أن تقرع الباب وتناديهم، وقرعت سارة جين الباب ونادتهم ، فنخروا ، ثم ارتدوا ينامون ثانيـة فى سعـادة . أعرف رجلا يغادر فراشه بالفعل ، ثم يأخذ حمـامـا باردا ، ورغم ذلك فلا فائدة، إذ إنه يقفز بعد ذلك إلى فراشه ليدفئ نفسه .

أنا أعتقد أننى أستطيع فعلا أن أبتعد عن الفراش ، إذا غادرته . إن انتزاع الرأس من الوسادة هى عندى أصعب مهمة ، بغض النظر عما عقدت عليه العزم طوال الليل . أقول لنفسى بعد أن ضاعت منى الأمسية «حسنا .. لن أقوم بأى عمل الليلة ، وسأستيقظ مبكرا صبيحة باكر» . هكذا يكون قرارى الحاسم الذى لا رجعة فيه عندئذ . فإذا ما حلّ الصباح ، قلّ حماسى للفكرة ، ورأيت أنه كان من الواجب أن أتم العمل فى الليلة الماضية . ثم إن هناك متاعب ارتداء الملابس . كلما تفكرت كلما اتضحت ضرورة أن تؤجل مغادرة الفراش .

شئ غريب هذا السرير ! هذا القبر المتنكر ، حيث نمدد أرجلنا ونغوص بعيدا فى هدوء إلى الصمت والراحة . «آه أيها السرير ، أيها السرير اللذيذ، يا جنة الرأس المتعب» .. إنك المربية العجوز لنا نحن المشاكسين صبية وصبايا . تأخذنا إلى حجرك الرحيب، أذكياء وأغبياء ، أشقياء وطيبين ؛ لتهدهد جراحنا . كلنا .. الرجل القوى منا يملؤه الهم ، المريض منا يملؤه الألم ، الفتاة الصغيرة منا تبكى حبيبا غدر .. كلنا كالأطفال نلقى رءوسنا بوجعها على صدرك الأبيض، فتمسح عنا كل حزن!

متاعبنا موجعة حقا إذا أنت تركتنا ولم نعد نجد عندك السلوى . كم يبدو الفجر بعيدا إذا لم نستطع النوم ! آه من تلك الليالى الكالحة عندما نتقلب فى الفراش من الحمى والألم ، عندما نرقد - كالأحياء بين الموتى - نرقب ساعات الظلام تتحرك فى بطء بيننا وبين الضوء . وآه ! آه من تلك الليالى الأكثر سوادا عندما نجلس سويا يملؤنا الألم ، عندما تروعنا فجأة نيران المدفأة الخافتة؛ إذ تتهاوى جمرة ، ونسمع فى دقات الساعة مطرقة تقرع الحياة التى نتأملها !

يكفى هذا عن الأسرَّة وحجرات النوم ، لقد لازمتها طويلا ، حتى بالنسبة لى كشخص كسول ، دعنا نخرج منها لندخن سيجارة . هذا أيضا يبدد الوقت ، ولا يبدو أمرا سيئا . إن الطباق نعمة بالنسبة لنا نحن الكسالى . يصعب بالفعل أن تخمن الطريقة التى كان الكتبة العموميون قبل زمان سير والتر يشغلون بها أذهانهم . إننى أعزو الطبيعة المشاكسة لشباب العصور الوسطى إلى حاجتهم إلى عشب مهدئ . لم يكن لديهم ما يفعلونه ، ولم يكن التدخين قد اكتشف ، ومن ثم فلم يكن أمامهم إلا الصراع والشجار . فإذا ما حدث بالصدفة البحتة أن توقفت الحرب ، فسيديرون معركة عائلية مع جيرانهم ، وإذا ما حدث بالرغم من ذلك أن وجدوا بين أيديهم بضع لحظات فارغة ، بدأوا فى مناقشة حول جمال حبيباتهم ، وأيهن أحلى ، وتكون مادة النقاش التى يوظفها الطرفان هى فئوس الحرب والهراوات .. الخ . كانت قضايا التذوق تحسم بسرعة فى تلك الأيام . فإذا ما وقع شاب من شباب القرن الثانى عشر فى الحب ، فإنه لم يكن يخطو إلى الخلف ثلاث خطوات ، ثم يحملق فى عينيها ويقول إنها أجمل من أن تحيا ، إنما سيقول إنه سيخرج ليتدبر الأمر . فإذا ما خرج وقابل رجلا وشج رأسه - رأس الرجل الآخر - فإن فتاة الأول تكون فتاة جميلة . أما إذا شج الآخر رأسه - ليس رأسه هو شخصيا كما تعرف ، وإنما رأس الشاب الآخر ، أعنى الشاب الآخر بالنسبة للشاب الثانى ، ذلك لأن الشخص الآخر سيكون بالطبع شخصا آخر فقط بالنسبة له ، وليس

للشخص الأول - حسنا .. اسمع لى ، إذا شج (أ) رأس (ب) فإن فتاة (أ) تكون جميلة ، أما إذا شج (ب) رأس (أ) فإن فتاة (أ) لا تكون جميلة ، وإنما تكون فتاة (ب) هى الجميلة . كانت هذه هى طريقتهم فى معالجة النقد الفنى .

أما فى أيامنا هذه ، فإننا نشعل الغليون ، ونترك الفتيات ليحسمن الأمر بأنفسهن .

وهن يقمن بهذه المهمة خير قيام . لقد أصبحن يقمن بكل أعمالنا . منهن الطبيبة والمحامية والفنانة . هن يخرجن المسرحيات ، ويشجعن الاحتيال ، ويحررن الجرائد. إننى أتطلع إلى اليوم الذى نصبح فيه نحن الرجال بلا عمل سوى أن نرقد فى السرير حتى الثانية عشرة ظهرا ، ونقرأ روايتين فى اليوم ، ونشرب الشاى وحدنا فى الخامسة ، ولا نشغل رءوسنا بأكثر من مناقشات عن آخر مودة للبنطلونات ، وعما إذا كان معطف المستر جونز مصنوعا من الصوف الخالص ، وعما إذا كان يلائمه . إنه توقع رائع ، لكل كسول مثلى !

***

(٦)
عن الوقوع في الحب

أنت قد وقعت فى الحب، أليس كذلك ؟ إذا لم تكن، فهو مدركك لا محالة ! الحب كالحصبة، لابد أن تصاب به، وهو كالحصبة أيضا لأنك لا تصاب به إلا مرة واحدة، ومن ثم فلا يلزم أن تخشى الإصابة به مرة ثانية. من يصاب به يمكنه إذن أن يرتاد أخطر الأماكن، أن يقوم بأبرع الأعمال وهو فى أمان كامل. يمكنه أن يتنزه فى الغابات الظليلة، وأن يهيم فى الطرقات الورِقة، وأن يمكث طويلا فوق المقاعد المكسوة بالطحلب يرقب غروب الشمس. لن يتهيب المنزل الريفى الهادىء بأكثر مما يتهيب ناديه. فى إمكانه أن ينضم إلى الرحلات العائلية عبر النهر. ولقد يجازف فيلقى بنفسه بين فكى الزواج، لتشهد أنت نهاية صداقته. يمكنه أن يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه فى صخب الفالس الساحر، ثم أن يستريح فى مكان مظلم، فلا يصيبه أكثر من زكام. يمكنه أن يواجه بشجاعة نزهة فى ضوء القمر عبر الأزقة العطرة، أو رحلة عند الشفق بين النباتات الحزينة. يمكنه أن يرتقى الأسوار دون خطر، وأن يخترق السياج النباتى المتشابك دون أن يضبطه أحد، وأن يهبط فى الممر الزلق دون أن ينكفىء على وجهه. يمكنه أن ينظر إلى الأعين المشرقة دون أن

يبهر بصره، وأن يستمع إلى الأصوات المُغوية لصفارات الإنذار، ثم يبحر دون أن يعيرها التفاتا. يمكنه أن يحتضن بيديه تلك الأيادى البيضاء دون أن تجذبه فيبقى مربوطا بها يشده سحرها اللذيذ!

كلا! إنا لا نصاب بالحب مرتين. إن كيوبيد لا يطلق سهمين على نفس القلب. وصيفات الحب هن صديقات العمر : الاحترام، والإعجاب، والحنان. أما مولاهن العلوى فى موكبه الملكى فلا يزورنا إلا مرة، يمضى بعدها. فلقد نميل إلى شخص، ولقد نتعلق بشخص، ولقد نولع أيما ولع بهذا أو بذاك، لكنا لا نحب مرة ثانية. إن الحب كالألعاب النارية لا يومض فى السماء إلا مرة. هو كالشهاب، يلمع لحظة، فتنير الدنيا كلها ببهائه، ثم يدركه ليل حياتنا اليومية الدنيئة ويحتويه، وتسقط إلى الأرض بقاياه المحترقة، لتبقى مهملة لا فائدة منها ترجى، فتخمد فى بطء وتستحيل إلى رماد. وما إن نتحرر من قيود سجننا، حتى نتجاسر - كمثل بروميثيوس - فنتسلق جبل الأوليمب وننتزع نار الآلهة من عربة فيبوس. ما أسعد من يستطيع وهو يسرع راجعا أن يوقد مذبح معبده الأرضىّ من هذه النار قبل أن تخبو! إن ضوء الحب أطهر من أن يستمر طويلا فى هذه الغازات الكريهة التى نتنفسها، لكنا نستطيع قبل أن يختنق هذا الضوء أن نستخدمه كمشعل نوقد به نار الحنان الدافئة.

وهذا الوهج الدافىء هو الأنسب على أية حال لردهتنا الخلفية الباردة، التى هى عالمنا - هو الأنسب، لا تلك الروح المشتعلة، التى هى الحب. إن الحب هو النار الطاهرة لمعبد هائل، لهيكل فسيح ضخم معتم، موسيقاه هى صوت الأجرام السماوية. سيتوهج الحنان فى حبور عندما

يخبو اللهب الأبيض للحب. أما نار الحنان، فإنها تتزايد مع الأيام حتى أن تأتى سنى الشتاء. للشيوخ من الرجال والنساء أن يجلسوا إليها وكل يحتضن يد الآخر النحيلة، وللصغار أن يقبعوا أمامها، وللأصدقاء والجيران أن يجدوا بجوارها ركنا دافئا يحتويهم.

زود النار بالعطف، بكلماتك الدمثة، بضغطات يدك الرقيقة، بأعمالك الطيبة، زودها بدعاباتك وصبرك ولينك، ثم دع الريح تعصف والمطر يسقط مدرارا، فلقد غدا بيتك دافئا وبهيجا، يشع فيه ضوء الشمس من الأوجه السعيدة، برغم ما يكتنف السماء بالخارج من غيوم.

أعرف يا إدوين ويا أنجلينا أنكما تتوقعان من الحب الكثير. تعتقدان أن قلبيكما الصغيرين يحملان ما يكفى ليشبع هذه العاطفة الضارية القاسية طول العمر. يا للشباب ! لا تعولا كثيرا على هذا الوميض الخافق. سيذوى ويذوى بمرور الشهور، وليس ثمة ما يزوده بالوقود. يتصور كل منكما أن الآخر قد غدا فاترا، سيحس إدوين بالمرارة، فلم تعد أنجلينا تسرع إلى الباب لمقابلته ووجهها يطفح بشرا وحياء، هى لم تعد تبكى الآن إذا ما أصيب بالبرد، وتلف ذراعيها حول رقبته وتقول أن لا حياة لها بعده، إن كل ما تفعله هى أن تنصحه بتعاطى حبة أسبرين، بل إنها تقول ذلك فى نبرة توحى بأن كل ما يضايقها هو الضجة التى يثيرها بعطسه.

والمسكينة الصغيرة أنجلينا، هى الأخرى، تذرف الدمع الصامت، فلقد أقلع إدوين عن حمل منديلها القديم فى الجيب الداخلى لصداره.

كلاهما يتعجب من برود صاحبه، لكن أيا منهما لا يرى ما حدث فى شخصه من تحول. لو أنهما فعلا ذلك لما كانت كل هذه المعاناة. عليهما أن يفتشا عن السبب فى مكانه الصحيح - فى ضآلة طبيعة الإنسان العاجزة، وأن يتكاتفا سويا أمام ضعفهما المشترك، ثم أن يبدآ من جديد فى بناء عشهما على أساس أكثر واقعية وثباتا. لكنا لا نرى قصورنا وإنما نلحظ عيوب الآخرين. كل ما يحدث لنا هو بالتأكيد من صنع الآخرين. كانت أنجلينا ستبقى العاشقة الولهة إلى الأبد لولا أن إدوين قد تغير وَغَدَا مختلفا. ولو أن أنجلينا بقيت كما كانت عندما أحبها إدوين لأول مرة، إذن لظل يعبدها مثلما كان.

يالكآبة ساعة تنطفىء فيها شمعة الحب، وتخبو نار العاطفة، فإذا بكل يتلمس طريقه فى فجر الحياة البارد القاسى يود لو يشعلها! ساعدهما يا ألله أن يشعلاها قبل أن ينقضى اليوم، ولا تدعهما يجلسان يرتعشان أمام الجمرات الميتة الى أن يحل الليل!

لكن.. ما فائدة الموعظة؟ من ممن يحسون بتدفق الحب الغض فى العروق يمكنه أن يتصور أن حبه يمكن أن يخبو ويضيع؟ الشاب فى العشرين يعتقد أن حبه بالتأكيد سيظل بمثل هذا الجنون عندما يبلغ الستين. صحيح أنه لا يذكر من معارفه شخصا فى منتصف العمر أو كهلا مازالت تبين عليه دلائل الحب المهووس، لكن هذا ليس شأنه؛ فحبه لا يضعف، وهو ليس كالآخرين. لم يحدث قبلا أن أحب أحد مثله، ومن ثم فإن خبرة بقية الناس لا تفيده. واحسرتاه! واحسرتاه! سينضم فى الثلاثين إلى صفوف الساخرين! الخطأ ليس خطأه. إن عواطفنا -

الطيب منها والخبيث - تتوقف عندما يتوقف الوجه عن الاحمرار خجلا. فنحن بعد الثلاثين لا نكره، ولا نحزن، ولا نهزج، ولا نيأس مثلما كنا نفعل أيام المراهقة. الفشل عندئذ لا يعنى الانتحار، والنجاح نعبُّ منه دون أن يصيبنا الثمل.

تؤخذ الأمور ببساطة مع تقدم العمر. لم يعد ثمة فقرات فخيمة بالفصول الأخيرة من أوبرا الحياة. يتخذ الطموح هدفا أقل طموحا. الشرف يغدو أكثر معقولية ويكيف نفسه فى سهولة مع الظروف. والحب - يموت الحب ! ثم تزحف «السخرية من أحلام الشباب» كالصقيع القاتل فوق قلوبنا. يتوقف نمو البراعم الغضة وتذبل الأزهار المتفتحة، ولا يتبقى من النبات المعترش، الذى ود لو نشر محاليقه حول العالم، سوى جذل جاف !

أنا أعرف أن أصدقائى الأعزاء سيتصورون أن كلامى هذا هرطقة كله. المؤكد أن الرجل لا يمكنه أن يحب بعد سن الصبا، لكنهم لا يأخذون اعتراضات الشخص مأخذ الجدية إلا إذا كان رأسه قد اشتعل شيبا. تستقى الفتيات أفكارهن عن جنسنا عن طريق الروايات، فإذا نظرنا فيها إلى الصورة الفظيعة التى يظهر بها الرجال، فسيبدو فرانكشتاين مثالا سويا للبشر !

فى مثل هذه الكتب، سنجد «عاشقا رئيسيا»، يوصف عادة بأنه «إله إغريقى» - وعلى الذكر، هم لا يذكرون أى «إله إغريقى» يشبهه هذا العاشق. فقد يكون الإله فولكان الأحدب، أو يانوس ذا الوجهين، أو حتى سيلتوس إله الطقوس المبهمة. هو على الأغلب يشبه عائلة الآلهة جميعا

فى صفة البذاءة، وربما كان هذا هو المقصود. إنه لا يستطيع أن يدعى لنفسه ذلك القدر الضئيل من الذكورة الذى يحمله النموذج الكلاسيكى الأصلى، فهو فاتر الهمة مخنث ساذج، قد تجاوز الأربعين من العمر. لكن، يالقوة العاطفة التى يذيعها هذا العجوز فى قلب طالبة مراهقة! فليتوار كل روميو أمام زير النساء المسن اللامبالى هذا! إن حبه عنيف هستيرى لا يمكننى أن أصفه هنا كما يجب.

يا سيداتى العزيزات، حسن جدا عندنا نحن الرجال الآثمين أن تدرسوا الكتب وحدها. لو درستن الرجال، إذن لعرفتن أن اللعثمة الحيية لدى المرأة تحكى قصة أكثر صدقا من فصاحتنا الجريئة نحن الرجال. الشاب يحب عندما يمتلىء قلبه، والرجل يحب عندما تمتلىء معدته. إن التيار البطىء عند الرجل ليس حبا، قارنه بذلك الينبوع الذى يتدفق إذا ما أصاب الحب قلب الصبى. فإذا كان لك أن تتذوق الحب، فاشرب من النهر الصافى الذى يسكبه الشباب عند قدميك، ولا تنتظر حتى تتعكر أمواهه فتتحنى لتدرك أمواجه!

أم تراك تفضل نكهته المرة؟ فليس لمائه الرائق الشفاف فى فمك طعم، إنما تستسيغه بعد إذ يدنس؟ أعلينا أن نصدق من يقول إن الفتاة الشابة لا تحب أن يربت عليها سوى اليد التى لطختها قذارة حياة مخزية؟

هذه هى القيم التى تروج لها الكتب الصفراء كل يوم. إنى لأعجب، ألم يتوقف يوما أى من هؤلاء الشياطين من الرجال ليسأل نفسه: أى أذى يذيع إذ يزحف فى حديقة الله ليوعز لحواء صغيرة أو آدم أحمق

بأن الخطيئة حلوة ؟ كم من فتاة بريئة أفسدوها وأحالوها إلى امرأة شريرة، وكم من شاب مسكين أفهموه أن الطريق الجانبى القذر هو أقصر الطرق إلى قلب الفتاة ؟ إنهم لا يتحدثون عن الحياة كما هى فى واقعها. قل الصدق وسيتجلى الصواب من تلقاء نفسه. إن الصور التى يذيعونها ليست إلا صورا خشنة، رسمتها الأوهام المنحرفة لخيالاتهم المريضة.

إننا نريد أن نتصور النساء، لا كما يعرضه البعض منهن، جنسا يقودنا إلى تحطيم أنفسنا، وإنما كملائكة طيبين يدفعننا إلى العلا. إن لديهن أكثر مما يتصورن من القدرة على الطيب والخبيث. ما إن يصل الشاب إلى العمر الذى يشكل فيه شخصيته حتى يقع فى الحب، لتتولى الحبيبة زمام أمره، تصنعه أو تفسده، فيشكل نفسه دون وعى منه على الصورة التى تطلبها، طيبة كانت أو سيئة. ويؤسفنى أن أكون صريحا فأقول إنهن لا يستخدمن سلطتهن دائما نحو الأفضل. فكثيرا ما يكون عالم النساء مكبلا داخل حدود المبتذل. فالبطل المثالى لديهن هو الأمير الحقير، وكم من ذهن متفتح - سحره الحب - فضاع ليحقق هذه الصورة، باحثا عن الرزق والاسم والشهرة.

لكن، يا أيتها النساء، يمكنكن أن تجعلننا أفضل، لو أردتن ! فى أيديكن - أكثر من أى واعظ - أن تجعلن هذا العالم قريبا من الجنة. الفروسية لم تمت بعد : إنها نائمة، فليس ثمة ما تقوم به. أنتن من يستطيع إيقاظها لتقوم بأعمالها النبيلة. أنتن جديرات بهذه الفضيلة. لابد أن تكنَّ أسمى منا. لقد حارب فارس الصليب الأحمر من أجل أونا.

لم يقتل التنين إلا من أجلها يا سيداتى، كن مليحات ذهنا وروحا ووجها، حتى يتمكن الفرسان الشجعان من أن ينالوا المجد فى خدمتكن! آه، يا أيتها المرأة، اطرحى عنك العباءات الكاذبة للأنانية والوقاحة والتكلف ! اظهرى مرة كملكة فى ردائك الملكى الطاهر. ثمة ألف من السيوف التى صدئت من الكسل ستخرج من أغمادها تحارب الباطل لتذود عن مقامك العالى. كم ألف سيسلم رمحه، وسيفنى الخوف والجشع واللذة والطموح أمام وجهك الحقيقى .

أية أعمال نبيلة لم نكن أهلا لها عندما أحببنا ؟ أية حيوات نبيلة لم نكن لنحياها من أجلها ؟ كان حبنا كالعقيدة نفنى من أجله. لم تكن الحبيبة بشرا مثلنا. كانت ملكة نجلها، كانت إلهة نعبدها !

يا كم قدسناها ! وياكم كان عذبا ذلك التقديس ! آه يا صديقى، احفظ حلم حبك فى الشباب ما أمكنك، وستدرك فيه صدق الأغنية التى تقول أن ليس فى الحياة بأكملها ما يصل إلى نصف عذوبته. وإذا ما جاء عنه الألم، فياله من ألم جامح رومانسى ليس كذلك الألم الدنيوى الفاتر. عندما تفقدها وينطفىء الضوء ويمتد العالم أمامك طريقا طويلا مظلما، فسيمتزج يأسك بالسحر والفتنة.

من منا لا يركب الأهوال من أجل هذا الجذل وتلك النشوة ! وآه ! يا له من جذل. إن ذكراه وحدها تملؤك طربا. كم كان عذبا أن تخبرها بأنك تحبها، أنك تحيا لها، أنك تموت من أجلها ! كم هذيت، كم هراء رائع سكبت، ثم آه من قسوتها إذ ادعت أنها لا تصدقك ! أتتذكر تلك الرهبة التى تملكتك والتعاسة التى ملأتك عندما أغضبتها ؟! يا لهذا

الجمال الذى جللها عندما غضبت منك، وبالسعادتك وأنت تطلب منها العفو دون أن تعرف فيم أخطأت ! كيف أظلم العالم حين صدتك هذه القاسية - كما كانت تفعل كثيرا - لمجرد أن تراك حزينا ! وكيف أشرقت الدنيا عندما ابتسمت ! أو تذكر الغيرة تملؤك من كل مَنْ هُمْ حولها ؟ كم كنت تكره كل من يصافحها من الرجال وكل من يقبلها من النساء - من المرأة التى تصفف شعرها، من الصبى الذى ينظف حذاءها، من الكلب الذى تلاطفه وتتعهده (وإن كان عليك أن تحترم نفسك أمام هذا الأخير). كم تطلعت إلى لقائها، فما إن تراها حتى يعقد لسانك فتظل تحملق فيها دون أن تنبس ببنت شفة. ألم يكن من المستحيل أن تخرج فى أى وقت بالنهار أو بالليل دون أن تجد نفسك فى نهاية المطاف واقفا أمام نافذتها ؟ لم تكن تمتلك الشجاعة فتقدم على زيارتها، فتظل تتسكع على الناصية تحدق فى منزلها ! آه لو احترق هذا المنزل - لقد أمنوا عليه، فلا يهم - إذن لاندفعت إلى الداخل وخاطرت بحياتك كى تنقذها ، وخرجت جريحا محترقا ! أى شىء لخدمتها ! أى شىء مهما صغر فهو عزيز. كنت تراقبها مثل كلب أمين - تتمنى لو تطلب منك شيئا ! يا كم ملأتك البهجة إذ تؤدى ما تطلبه منك. كم كان جميلا أن تكرس كل حياتك من أجلها لا تفكر فى نفسك. وفى غير أيام الأجازات كنت تمضى لتقدم القرابين لمقامها العالى، ثم تشعر بأنك قد حصلت على أكثر مما تستحق إذا هى تكرمت وقبلت قرابينك. كل ما تلمسه بأصبعها يصبح مقدسا - قفازها الصغير، الوشاح الذى تلبسه،

الوردة التى ترشقها فى شعرها. وتذبل الوردة، وتتساقط أوراقها فتلهمك الشعر.. الشعر الذى لا تهتم الآن بقراءته أبدا !

أواه ! لكم كانت جميلة ! كان جمالها رائعا مدهشا. كانت ملاكا. إذا دخلت حجرة أصبح كل من فيها قبيحا دنيويا ! كانت مقدسة طاهرة لا يصح أن تلمس. كان النظر إليها وقاحة ! كانت فكرة تقبيلها مستحيلة ! أما أن تركع أمامها، ثم ترفع فى وجل يدها النحيلة إلى شفتيك، فهذا هو التدنيس.

آه من تلك الأيام الحمقاء ! تلك الأيام الحمقاء، أيام نقاء الذهن واللاأنانية. تلك الأيام الحمقاء، أيام كانت قلوبنا يملؤها الصدق والإخلاص والتوقير. آه من تلك الأيام الحمقاء، أيام الشوق النبيل والكفاح النبيل ! ثم آه من هذه الأيام الحكيمة الذكية، التى أصبح فيها المال هو الجائزة الوحيدة التى تستحق الكفاح، التى لا نؤمن فيها إلا بالبخل والأكاذيب، والتى لا نهتم فيها إلا بأنفسنا !

***

(٧)
عن الطقس

تسـيـر الأمـور دائمـا مـعى على نحـو مـعـاكس. أردت أن أقع على موضـوع مـبتكر غير مطروق أكتب فيه مقالة فى هذه السلسلة. قلت لنفسى : «سأكتب مقالة عن شىء جديد تماما، شىء لم يكتب فيه أحد قبلى ولم يتكلم فيه أحد قبلا، وسأعالجه إذن كما يروق لى». حاولت أياما أن أفكر فى شىء من هذا القبيل، فلم أستطع. ثم حضـرت خـادمتنا مسز كاتنج - لا مانع من ذكر اسمها صراحة لأنى أعرف أنها لن تقرأ هذا الكتاب، فهى لا تهتم بمثل هذه المطبوعات التافهة. هى لا تقرأ غير الإنجيل ومجلة الأخبار الأسبوعية، وكل ما عداهما تعتبره رجسا لا لزوم له .

نظرت إلىّ وقالت : «يا رباه ! إنك تبدو مرهقا يا سيدى!».

قلت لهـا : «اسـمـعى يا مـسـز كـاتنج، إننى أحـاول أن أفكر فى موضوع يروع العالم عند ظهوره، موضوع لم يسبق أن كتبت عنه كلمة، موضوع يلفت الانتباه بجدته، وينعش بطزاجته الدهشة !».

ضحكت وقالت إننى رجل غريب الأطوار طائش !

هكذا حظي دائما ! ما أن أنطق بملاحظة جدية حتى يضحك الناس، فإذا ما أطلقت نكتة، لم يفهمها أحد. في الأسبوع الماضي كانت لدي نكتة ظريفة، وجدتها فكهة جدا، فأجهدت نفسي في صياغتها وألقيتها في براعة في حفل عشاء. لا أذكر ما حدث بالضبط، لكنا كنا نتحدث عن موقف شكسبير من الإصلاح، فقلت تعليقا، ثم أردفت : «والشيء بالشيء يذكر، لقد وقعت لي منذ أيام واقعة ظريفة في هوايتشابل». قالوا : «أوه ! ماذا حدث؟ ». فأجبت وقد ابتدأت أقهقه : «أوه ! كان شيئا ظريفا حقا، ستموتون من الضحك!». ورويت لهم ما وقع.

عندما انتهيت ران صمت ثقيل - كانت واحدة من تلك النكات الطويلة - وأخيرا قال أحدهم : «هل هذه هي النكتة؟».

أكدت لهم بالفعل أن هذه كانت النكتة. كانوا مؤدبين حقا، فصدقوني. صدقوني جميعا إلا واحدا كان يجلس على النهاية البعيدة للمائدة. أراد أن يعرف النكتة، أكانت فيما قاله لها، أم تراها كانت فيما قالته له. وطفقنا نتجادل في الأمر.

هناك من هم على العكس من هؤلاء تماما. كنت أعرف شخصا له ميل طبيعي لأن يضحك على كل شيء، بطريقة تضطر معها - إذا أردت أن تتحدث معه عن أمر جاد - أن تشرح له مسبقا أن ما ستقوله ليس هزلا. فإذا لم تستطع أن تفهمه هذا تماما، فسينخرط في نوبة عاصفة من الضحك عقب كل لفظ تنبس به. أعرف عنه مثلا أنه إذا ما سئل عن الوقت، فإنه يقف في منتصف الشارع ويخبط على رجله ثم ينفجر

ضاحكا ! إن المرء لا يجسر على أن يحكى له هزلا حقيقيا على الإطلاق. فالنكتة الجيدة قد تقتله فى التو واللحظة.

نعود إلى حكايتنا. أنكرت بحماس اتهامها لى بالطيش، وألححت عليها أن تفكر معى فى موضوع عملى. تفكرت قليلا ثم خاطرت بموضوع عن «شغل الإبرة»، قائلة إن أحدا لم يعد يثيره الآن على الإطلاق بالرغم من أنه كان قضية ذائعة أيام كانت صبية.

رفضت الفكرة، ورجوتها أن تفكر ثانية. تفكرت مليا وهى واقفة تحمل صينية الشاى، وأخيرا اقترحت أن أكتب عن الطقس، فهى متأكدة أنه كان فظيعا فى الفترة الأخيرة.

ومنذ سمعت هذا الاقتراح الأبله، لم أعد قادرا على أن أخرج الطقس من ذهنى، ولا أن أدخل فيه أى شىء آخر.

إنه مؤكدا طقس فظيع للغاية. على أية حال، إنه هكذا الآن وأنا أكتب لك. فإذا لم يكن كذلك وأنت تقرأ ما كتبته، فسيصبح كذلك عاجلا!

إنه دائما طقس فظيع، من وجهة نظرنا. الطقس كالحكومة - دائما على خطأ. فى الصيف نقول إنه خانق، وفى الشتاء نقول إنه قاتل. وفى الربيع والخريف نجد عيبه فى أنه لا هذا ولا ذاك، ونتمنى لو استقر على اتجاه واضح. إذا كان صحوا قلنا إن الريف سيدمر بسبب نقص الأمطار. فإذا أمطرت صلينا من أجل الطقس الصحو. إذا مر ديسمبر دون أن يسقط الثلج، تساءلنا ناقمين عما حدث لأشتيتنا الجميلة الماضية، وتحدثنا كما لو كنا قد خدعنا فى شىء اشتريناه ودفعنا ثمنه.

فإذا ما سقط الثلج، تلفظنا بألفاظ قبيحة لا تليق بأمة متدينة. لن يستريح لنا بال حتى يصنع كل منا طقسه، ويُدَكِّنَه لنفسه!

فإذا لم نتمكن من تدبير ذلك، فالأفضل أن نستغنى عنه تماما.

لكنى أعتقد أن الجو لا يكون كريها إلا بالنسبة لنا وحدنا، نحن سكان المدن ؛ فالطبيعة فى الريف - حيث موطنها الأصلى - عذبة فى كل أحوالها.

هل هناك ما هو أكثر جمالا من الثلج يتساقط فى طراوة صامتة حاملا أسراره الهائلة، ليغطى الحقول والأشجار باللون الأبيض، فتبدو كما لو كان ثمة موكب لزفاف الحور؟ يا لها من نزهة جميلة نسمع فيها وقع أقدامنا المتمايلة فوق الأرض المتجمدة - عندما ينمَل فينا الدم إذ يحس بالهواء اللاذع البارد، عندما يجلجل صافيا نباح الكلاب البعيدة وضحكات الأطفال كمثل أجراس الألب عبر التلول المفتوحة ! تنطلق بأجنحة من فولاذ عبر الثلوج المترنحة، تنبعث الموسيقى تعزف ونحن نسمو ونطير ! وآه ! آه من هذا الربيع الأنيق.. الطبيعة الحلوة الغضة ! عندما تبزغ الأوراق الصغيرة المفعمة بالأمل تطل طازجة خضراء نقية وضاءة، كالعذارى يتحركن فى حياء إلى عالمنا الصاخب، عندما تزهر شجرة الفاكهة، حمراء وبيضاء، كصبايا الريف فى أرديتهن الملونة، فتخفى كل كوخ سعيد فى غلالة من الروعة الرقيقة، بينما النسيم يحمل نداء الوقواق عبر الغابة ! والصيف بهمهمته الخضراء العميقة الناعسة.. عندما تهمس قطرات المطر بأسرارها فتسمعها أوراق الأشجار المصغية، ويتلكأ الشفق فى الأزقة ! والخريف ! آه منه حزينا جميلا،

بوجهه الذهبى، وروعة غاباته الذابلة الملونة.. الغروب تغمره الحمرة، أطياف ضباب أمسياته الرقيقة، دمدمة حاصداته النشطة، بساتينه المحملة بالثمار، تصايح الفتيات يجمعن الثمار، وأعياد الحصاد !

المطر نفسه والجليد الرقيق والبرد تبدو جميعا خدما للطبيعة، وهى تؤدى مهامها البسيطة فى الريف. والريح الشرقية ذاتها - إذا لاقيتها بين الأسوار الخضراء - ليست سوى صديق مرح صاخب !

أما فى المدينة حيث يتقرح الجص المطلى تحت الشمس ودخانها، وحيث يجلب المطر الأسود الملوث الردغة والطين، وحيث يرقد الثلج مكدسا فى أكوامه القذرة، وحيث العواصف الباردة تصفر فى الشوارع القبيحة وتصرخ حول الأركان الغاضبة الخافتة الضوء، فى هذه المدينة لن تسرنا رؤية وجه الطبيعة. الطقس فى المدن يشبه قُبَّرة فى مكتب للمحاسبة، لا مكان لها، إنما تضايق من حولها. المدن لابد أن تحجب وأن تدفأ بأنابيب الماء الساخن وأن تضاء بالكهرباء. والطقس فتاة ريفية لا تجد نفسها فى المدينة. إننا نحب أن نغازلها عند كومة القش قرب الحقل، لكنها لا تبدو فاتنة إذا قابلناها أمام المسرح ! إنها تتجلى فى مكانها. الضحكة الصريحة الحرة والصوت الودود الذى يرن معسولا فى حظيرة الأبقار، يصر ويصرف فى زيف حياة المدينة.

أتحفنا الطقس أخيرا بمطر لا ينقطع استمر ما يقرب من ثلاثة أسابيع. ولقد غدوت مقيتا كئيبا مبتلا كريها !

يخرج جارى العزيز الى حديقته الخلفية ما بين الحين والآخر ويقول إنه يفيد الريف كثيرا.. ليس خروجه هو إلى الحديقة وإنما الطقس. هو

لا يفهم شيئا البتة عنه، ولكنه قد وضع نفسه فى زمرة الزراعيين منذ بدأ فى الصيف الماضى فى تجهيز أرضه لزراعة الخيار. ثم أخذ يتحدث بطريقته السخيفة محاولاً أن يعطينا - نحن سكان الشارع جميعا - الانطباع بأنه مزارع متقاعد. لا أجد أمامى إلا أن أتمنى أن يكون على صواب - ولو لمرة واحدة فى العمر - وأن يفيد الطقس البعض فعلا ؛ لأنه يسبب لى شخصيا قدرا كبيرا من الأذى. فهو يفسد ملابسى كما يفسد مزاجى. يمكننى أن أتحمل إفساد مزاجى - فلدى منه ذخيرة كبيرة - لكنى أجرح فى صميمى عندما أرى بنطلونى وعزيز قبعاتى القديمة وهى تتهاوى قبل أوانها، فتصبح عتيقة بالية، تحت رياح العالم الباردة وثلوجه.

ثم هناك أيضا بذلة الربيع الجديدة. كانت رائعة رائعة.. كانت.. وها هى الآن معلقة وقد لوثها الوحل، ولا أتحمل النظر إليها.

كان الخطأ خطأ جيم. كان من الواجب ألا أخرج بها تلك الليلة. كنت قد بدأت أقيسها عندما دخل. ما أن رآها حتى ألقى ذراعيه إلى أعلى ثم صاح صيحة مجنونة.

قلت : «هل هى مضبوطة علىّ ؟».

أجاب : «رائعة يا صديقى، رائعة ! »، ثم سألنى إن كنت سأخرج معه.

قلت : «كلا». لكنه غلبنى. قال : «إن رجلا يمتلك مثل هذه البذلة لا يصح أن يبقى داخل منزله». ثم قال : «إن كل مواطن عليه دين

للجمهور، وعلى كل منا أن يساهم فى سعادة الشعب، كل حسب قدرته. أخرج يا رجل، ومتع الفتيات!».

يتلفظ جيم كثيرا بألفاظ نابية. أنا لا أعرف من أين يلتقطها. لكنه بالتأكيد لا يأخذها عنى.

قلت: «أتعتقد حقا أنهن سيعجبن بها ؟».

قال إنه متأكد أنهن سيجدن فى رؤيتها متعة لا مثيل لها.

قضى الأمر. كانت الأمسية جميلة، فخرجنا.

عندما رجعت، خلعت ملابسى، ودلكت نفسى بالويسكى، ووضعت قدمى فى ماء ساخن، وألصقت «لزقة» على صدرى، وأكلت طستا من الثريد، وشربت كوبا من البراندى الممزوج بالماء، ودهنت أنفى بالشحم، ثم مضيت إلى سريرى.

كانت هذه الإجراءات السريعة العنيفة، بجانب طبيعة جسمى القوى، هى الوسيلة التى حفظت حياتى. أما بالنسبة للبذلة ! حسنا ! إنها ليست بذلة، لقد تحولت الى ما يشبه رفرف العربة.

كنت أعشق هذه البذلة حقا ، لكن هكذا الحياة معى دائما. عمرى ما أحببت شيئا فى هذا العالم إلا ووقعت له حادثة فظيعة. كان عندى جرذ أليف وأنا طفل. أحببت هذا الحيوان كما يعشق الصبى جرذ الماء العجوز ! وفى يوم من الأيام سقط فى وعاء للطبيخ كان قد ترك جانبا حتى يبرد. ولم يعرف أحد ما جرى للمسكين إلا عندما بدأ توزيع الطعام بالمغرفة !

أكره الجو المطير فى المدينة، واعتراضى ينصب أساسا على الوحل قبل المطر. يبدو أن لدى - بطريقة أو بأخرى - شيئا ما لا يقاوم يغرى الوحل ! يكفى أن أظهر بالطريق فى يوم مطير ليغطى الوحل نصف ملابسى. كل هذا لأننى جذاب فاتن - كما قالت سيدة أصابتها صاعقة. هناك من خلق الله من يخرج فى الأيام الوحلة ويمشى ساعات وساعات فلا تدنسه لطخة من وحل. أما أنا ! فيكفى أن أعبر طريقا لأتحول إلى فضيحة لا يصح أن يراها أحد (كانت والدتى المسكينة تقول لى نفس هذا، وأنا بعد صبى). فإذا ما كان فى مدينة لندن بأكملها أقل قدر من الوحل، فلن يحظى به - من بين كل المتنافسين عليه - سواى !

وددت لو أستطيع مبادلته العاطفة، لكن أخشى أننى أبدا لن أستطيع. يصيبنى الذعر مما يسمى «خصوصيات لندن». أشعر بالبؤس والكآبة فى الأيام المطيرة، ولا أهدأ حتى أخلع ملابسى وآوى إلى السرير ؛ لأبتعد تماما عن كل شىء. فكل شىء يُخفق فى الجو المطير. دعنى أخبرك شيئا لم أجد له تفسيرا ؛ لقد لاحظت أن أعداد الناس والكلاب وعربات الأطفال والتاكسيات والكارو تزيد كثيرا فى الجو المطير عن أى وقت آخر، وأن هؤلاء جميعا يعترضن طريقك، وأن كل الناس (غيرى) يصبحون سيئى الطباع، الأمر الذى يصيبنى بالجنون! بل ولقد لاحظت أيضا أننى دائما ما أحمل فى الأيام المطيرة أشياء أكثر من الأيام الجافة. وإذا ما فاجأك المطر وأنت تحمل حقيبة وثلاثة طرود وجريدة، فإن لن تتمكن من أن تفتح مظلتك !

وهذا يذكرنى بوجه آخر لا أطيقه من أوجه الطقس، هو طقس أبريل (يسمى هكذا لأنه يأتى عادة فى شهر مايو). الشعراء يجدونه لطيفا جدا، ولأنه متردد يشك فى نفسه فقد شبهوه بالمرأة، ومن ثم فالمفروض أن يكون ساحرا. وأنا شخصيا لست من المعجبين به، فموضوع التغير السريع فى المزاج قد يكون مقبولا جدا فى المرأة.. فالمرء منا يسعده كثيرا أن يتعاون مع شخص يضحك الآن بلا سبب ثم يتباكى فى اللحظة التالية لنفس السبب، يقهقه ثم يعبس.. مع شخص بذىء، عاطفى، غاضب، مرح، عاصف، صامت، انفعالى، بارد، فاتر، ثقيل، كل ذلك فى آن معا (أرجو أن أذكرك أن هذا ليس رأيى الشخصى، إنما هو رأى الشعراء، والمفروض أنهم خبراء فى مثل هذه المواضيع). لكن مثالب هذا النظام فى حالة الطقس أكثر وضوحا. فدموع المرأة لا تبلل الرجل، لكن المطر يبلله، وبرودها لا يسبب الربو والروماتيزم مثلما تفعل الريح الشرقية. أستطيع أن أعد نفسى ليوم سىء عادى، وأن أتحمله، لكن هذه الفوضى لا تلائمنى على الإطلاق. أنا لا أحب أن أمشى فيها مبتلا حتى النخاع. ثمة ما يدعو للغضب فى الطريقة التى تظهر بها الشمس باسمة بعد وابل من المطر، إذ يبدو أنها تقول: «يالله، يا حماك الله! لا تقل لى إنك مبتل! عجبا! إن الأمر كله لا يعدو أن يكون مراحا!!».

إنهم لا يسمحون لك بالوقت الكافى لتفتح مظلتك أو تقفلها فى أيام أبريل، لا سيما إذا كانت تعمل أوتوماتيكيا - المظلة أعنى، لا أيام أبريل.

اشتريت مرة فى شهر أبريل مظلة أوتوماتيكية، وقضيت معها أوقاتا لا تنسى! كنت فى حاجة إلى مظلة فتوجهت إلى محل وطلبت واحدة، فقالوا:

– نعم يا سيدى، أى نوع من المظلات تود؟

قلت: «إننى أفضل مظلة تحمى من المطر ولا تسمح لنفسها بأن تنسى فى القطار».

قال البائع : «جرب المظلة الأوتوماتيكية».

قلت : «وما المظلة الاوتوماتيكية؟»

أجاب الرجل بلهجة يشوبها الحماس:

– إنها ابتكار جميل ، فهى تفتح وتغلق نفسها بنفسها.

اشتريت واحدة ووجدت بالفعل أنه كان على حق. إنها تفتح نفسها وتغلق نفسها، فعندما تمطر – وكانت بالفعل تمطر فى ذلك الفصل كل خمس دقائق بالتناوب – كنت أحاول أن أعالجها لتفتح، لكنها لم تكن تهتم. كنت عندئذ أقف أصارع تلك الملعونة، وأهزها، وأشتمها، بينما المطر ينسكب على رأسى كما السيل. فإذا توقف المطر انفتحت فجأة فى نخعة ورفضت أن تغلق ثانية، ليكون على أن أمشى والسماء زرقاء ساطعة وأنا أحمل مظلة فوق رأسى، وكلى أمل أن تمطر ثانية حتى لا يظن البعض أننى مختل العقل.

ثم أنها كانت تقفل نفسها على نحو فجائى غير متوقع، فتلقي بقبعتى على الأرض!

لا أعرف السبب فى تلك الحقيقة التى لا تنكر، وهى أن لا شئ يجعل الرجل مضحكا، أكثر من فقده قبعته! إن الشعور بالبؤس العاجز الذى يتدفق فى ظهرك عندما تكتشف فجأة أن رأسك قد غدت عارية بلا غطاء، هو عندى شعور من أقسى وأفظع ما يحس به البشر! ثم هناك ما يتبع فقدك القبعة من مطاردة محمومة وراءها، يصحبك فيها كلب صغير سريع الحركة قد تهيج متخيلا أنه يشترك فى لعبة. والمؤكد أنك أثناء المطاردة ستقلب ثلاثة أو أربعة أطفال أبرياء - ومعهم أمهاتهم - وستنطح رجلا مسنا سمينا وتلقيه فوق عربة أطفال، وتندفع مخترقا تجمعا من النسوة ، لتجد نفسك ملقى بين ذراعى كناس مبتل . يبدو - بعد ذلك - أن المرح الصاخب للمشاهدين غير ذى أهمية، ومثله أيضا ذلك المظهر المزرى للقبعة عقب القبض عليها!.

وما بين رياح مارس وأمطار أبريل وغياب الأزهار فى مايو، لايبدو الربيع متميزا فى المدينة. هو على ما يرام فى الريف، كما سبق أن ذكرت، أما فى المدينة، حيث يزيد عدد السكان على عشرة آلاف، فمن الواجب فعلا أن يلغى. فى ورشة العالم الضارية يبدو الربيع كالأطفال - لا مكان لهم - كلاهما لا يفيد ما بين الغبار والجلبة. من المحزن أن ترى الأطفال المشاغبين بقذاراتهم يحاولون اللعب فى الساحات المفعمة بالضجيج وفى الشوارع الموحلة. يا لهذه الذرات الآدمية من مساكين لا يهتم بهم أحد. هم ليسوا أطفالا. الأطفال أعينهم وضاءة. الأطفال يمتلئون صحة، الأطفال يعرفون الخجل. أما هؤلاء، فهم عفاريت صغار

يملأون الدنيا ضجة، أوجههم الصغيرة الذابلة ذاوية، وضحكاتهم الطفلة مشروخة خشنة.

ربيع الحياة وربيع العام، أراد الله لهما أن يهدهدا فى حجر الطبيعة الأخضر. الربيع يأتى إلينا فى المدينة ومعه رياحه الباردة وسماؤه الممطرة رذاذا. ابحث عنه بين الغابات نضت عنها أوراقها، فى الأزقة ملأتها نباتات العليق، فوق المستنقعات جللتها نباتات الخلنج، وعلى التلول العظيمة السامقة، ابحث عنه هناك إذا أردت أن تحس أنفاسه المرحة وأن تسمع أصواته الصامتة. هناك ترقد نضارة الربيع الرائعة. السحب الراكضة، الزمهرير الطلق، الريح الثائرة، الهواء الصافى المرح كل هذه تثير فينا طاقات وآمالا مبهمة. تبدو الحياة كما الريف من حولنا - أكبر وأوسع وأسخى ، تبدو طريقا من قوس قزح يقود إلى مالا ندريه. ومن خلال الشقوق الفضية التى تعترض السماء، سنحظى بلمحة من الأمل الهائل ومن الجلال الذى يغلف هذا العالم الصغير النابض، وستهب علينا نسمة من روائحه العطرة تحملها أجنحة رياح مارس الجامحة!

ثمة أفكار غريبة لا نفهمها تتحرك داخل قلوبنا . أصوات تنادينا لجهود ما شاق، لعمل ما هائل . لكنا لا نفهم معناها. والأصداء الخبيئة داخلنا - تلك التى يمكنها أن تجيب - مازالت حبيسة، عاجزة عن الإفصاح، بكماء!

نمد أيدينا كالأطفال نحو الضوء، نود أن نقبض مالا ندريه. وأفكارنا - كأفكار الأطفال - طويلة طويلة غامضة ، لا نرى لها نهاية.

لكنهـا لابد أن تكون هـكذا. كل الأفكار التى تريد أن تخـتـرق هذا العـالم الضـيق إلى خـارجـه، لا يمكن إلا أن تكون غـامـضـة مـشـوهة. الأفكار التى يمكن أن نتمكن منها أفكار جد صغيرة - كمثل أن اثنين زائداً اثنين تساوى أربعة ، كمثل أن الجائع يسعده أن يأكل ، كمثل أن الأمانة هى خير حكمة - أما الأفكار الكبيرة فهى لا محدودة، وأكبر من أذهاننا الطفلة الهـزيلة. إننا نرى - إنما فى غـمـوض - من خـلال الضـبـاب الذى يكتنف جـزيرة الحـيـاة المكبلة بالزمن، ولا نسـمع إلا الجيشان البعيد البعيد لمحيط العالم الآخر الهائل.

***

(٨)
عن القطط والكلاب

يعجز لسانى عن وصف ما لاقيته منها هذا الصباح. بدأ الأمر بالمدعو جوستافوس أدولفوس.. وجوستافوس أدولفوس هذا (ويناودنه فى الطابق السفلى اختصارا باسم جوستى) كلب ممتاز جدا- عندما يكون وسط حقل كبير، أو فى حديقة شاسعة. لكنى لا أحب أن أراه داخل المنزل. إن نيته طيبة لاشك، لكن منزلى لا يوافق حجمه، إذا تمدد احتل كرسيين وما شاكل، وإذا هز ذيله بدت الحجرة وكأن جيشا مدمرا قد غزاها، فإذا ما تنفس أطفأ نار المدفأة.

عند العشاء يزحف تحت المائدة، ليرقد هناك برهة. ثم إنه ينهض فجأة، فنلحظ حركته أول ما نلحظها عن طريق المائدة التى تبدو كما لو كان ثمة رغبة ملحة فى الشقلبة قد تملكتها. فى جنون نتشبث بها جميعا لنحفظها فى وضعها الأفقى. هنا يتعاظم نضاله، إذ يتخيل أن ثمة مؤامرة خبيثة تدبر ضده، وينتهى الأمر بمائدة مقلوبة وطعام محطم، وبينهما طبقتان من نساء ورجال حانقين.

دخل صبيحة هذا اليوم بطريقته المعتادة، وهى طريقة قد استعارها على ما يبدو من الإعصار الأمريكى ، وكان أول ما فعله هو أن كنس بذيله فنجان القهوة من أمامى ملقيا بمحتوياته فى منتصف صدارى.

نهضت بسرعة، وعلقت قائلا «............»، واتجهت نحوه بخطوة سريعة. سبقنى إلى الباب، وهناك قابل إليزا تدخل الحجرة تحمل عددا من البيض. أبدت إليزا ملاحظة قصيرة: «آآخ» ثم جلست على الأرض، بينما البيض يتخذ مواقع مختلفة فوق السجادة. غادر جوستافوس الحجرة. ناديته ونصحته بأسلوب عنيف أن ينزل فورا إلى الطابق السفلى ، وألا يجعلنى أرى وجهه مرة أخرى خلال ساعة أو نحوها. بدا أنه يوافقنى، فتفادى مجرفة الفحم التى ألقيتها خلفه ومضى إلى حال سبيله. رجعت أنا وجففت نفسى وأكملت إفطارى وتأكدت أنه مضى إلى الفناء. لكنى عندما نظرت إلى الممر بعد عشر دقائق، وجدته جالسا على الدرجة الأخيرة من السلم.

أصدرت له أمرا أن ينزل فورا، فما كان منه إلا أن نبح، وقفز إلى الخارج. وذهبت أنا لأستطلع الأمر.

كانت تيتامس هى السبب. كانت تجلس على الدرجة قبل الأخيرة من السلم ، ولم تسمح له بالمرور.

وتيتامس هى قطتنا، وهى صغيرة الحجم . كانت ترفع ظهرها وهى تسب وتلعن كطالب فى كلية الطب!

تسب هذه القطة وتلعن بشكل مرعب. أنا نفسى أفعل ذلك فى بعض الأحايين، لكنى - مقارنة بها - لست بأكثر من هاو . وإذا أردت الحقيقة - واسمعنى جيدا لو سمحت، فهذا كلام خاص بيننا نحن ، وأنا لا أحب أن تحكيه لزوجتك ، فالنساء لا يفهمن هذه الأشياء - أتعرف ؟ إننى

أعتقد، بينى وبينك، أن الشتائم كثيرا ما تفيد الرجل منا. إن السب صمام أمان، من خلاله تتبخر انفعالات الرجل فتجنبه ما قد ينشأ عنها من ضرر خطير للذهن. عندما يقول الرجل : «باركك الرحمن يا سيدى المبجل العزيز، ما الذى بحق السماء قد جعلك مهملا هكذا قليل الانتباه فتسمح لقدمك الصغيرة المرهقة بأن تهبط بالتحديد فوق «عين السمكة» بقدمى بمثل هذه القوة؟ أفيكون ذلك راجعا إلى أنك لا تستطيع أن تقدر اتجاهك؟ يا لك من شاب لطيف ذكى.....»، عندما يقول الرجل هذا، أو سواه مما يؤدى نفس المعنى، فإنه يشعر بتحسن. إن للسب على انفعالاتنا الغاضبة نفس الأثر المهدئ المعروف لتحطيم الأثاث وإغلاق الباب بعنف، أضف إلى ذلك أنه أرخص سعرا بكثير. إن السب ينظف الرجل من الداخل مثلما ينظف البارود المدخنة. إن انفجارا ما بين الحين والآخر يفيد الاثنين. إننى لا أثق كثيرا برجل لا يشتم ولا يرفس بوحشية كرسيا ولا يلكز النار فى المدفأة بعنف دون ما سبب. إن مشاكل الحياة اليومية المتكررة تسبب غضبا لابد أن يجد له مخرجا، وإلا فإنه قمين بأن يعتمل وأن يتقيح بداخلنا. إن القلق اليسير ليجلس بجانبنا إذا لم نتخلص منه، فيصبح حزنا. إن الإساءة الطفيفة لتتخمر داخلنا لتجترها فى ليالى الأرق فتغدو مرضا، من ظلاله السامة ينبت البغض والانتقام.

الشتائم تريح المشاعر، هذا ما تفعله الشتائم. شرحت هذا لعمتى يوما، لكنه لم يجد صدى لديها. قالت إنه لا يجب أن أحمل مثل هذه المشاعر.

وهذا ما قلته لتيتامس. قلت لها إن عليها أن تخجل من نفسها وقد نشأت وترعرعت فى عائلة متدينة. لا يثيرنى كثيرا أن أسمع قطة عجوزا تشتم، لكننى لا أتحمل أن أرى هريرة صغيرة تنزلق إلى هذا الدرك. الأمر محزن عندما يحدث من الصغار.

وضعت تيتامس فى جيبى ورجعت إلى المكتب. نسيتها برهة وعندما نظرت وجدت أنها قد انسلت وخرجت من جيبى ووقفت على المكتب تحاول أن تبتلع القلم. ثم وضعت رجلها فى المحبرة، وقلبتها ثم نعقت رجلها، ثم أخذت تشتم ثانية، تشتمنى هذه المرة.

وضعتها على الأرض، وهناك بدأ تيم شجارا معها. كم تمنيت ألا يتدخل تيم فيما لا يعنيه. لم يكن مسئولا عما فعلته القطة. ثم إنه هو نفسه ليس بالقديس! إنه مجرد كلب صيد صغير عمره سنتان، لكنه يتدخل فى كل شئ، ويختال كما لو كان كلبا من سلالة الكولى الاسكتلندى الضخم.

كانت والدته قد دخلت، وكان أنف تيم قد خدش - وهو ما سعدت له كثيرا. طردت ثلاثتهم إلى الممر، حيث يتشاجرون الآن جميعا. أنا الآن أحاول جاهدا أن أعالج أمر الحبر المسكوب، وقد أفلتت أعصابى تماما. لو دخل علىَّ الآن جنس قطة أو كلب يحاول المزاح، فتصيحتى أن يصطحب معه الحانوتى الذى سيجهز جنازته.

ورغم ذلك فإننى - عموما - أحب القطط والكلاب. إن صحبتهم تفضل صحبة البشر. إنهم لا يتشاجرون معك ولا يتجادلون. إنهم لا

يتحدثون عن أنفسهم، وإنما يصغون إليك وأنت تتحدث عن نفسك، ثم يبدو عليهم كما لو كانوا يهتمون بما تقول. إنهم لا يلقون بتعليقات غبية. إنهم لا ينبهون الآنسة براون عبر مائدة العشاء أنهم يلاحظون شغفها بالسيد جونز (الذى تزوج مؤخرا من الآنسة روبنسون)، هم يميزون بين بنت عم زوجتك وزوجها، ولا يتوهمون أنك والد الزوجة. وإذا ما رأوا شابا بمكتبته أربع عشرة رواية تراجيدية، وست عشرة رواية كوميدية، وسبع مسرحيات هزلية وبضعة كتب ساخرة، فلن يسألوه لماذا لا تكتب مسرحية.

إنهم أبدا لا ينبسون بكلمة فظة. إنهم أبدا لا يخبروننا بعيوبنا «لمصلحتنا فقط»، هم لا يذكروننا فى رقة وفى الوقت الخطأ بحماقاتنا وأخطائنا. هم لا يقولون لنا فيما يشبه السخرية «نعم نعم، إنك مفيد حقا، عندما نحتاج إليك»، هم لا يبلغوننا — كما تفعل عشيقاتنا - أننا لم نعد مثلما كنا ظرفاء. نحن فى عيونهم لا نتغير.

تسعدهم دائما رؤيتنا. هم معنا فى أفراحنا، يهزجون إذ نسعد، يكتئبون إذ نكتئب، ويحزنون إذا نحن أصبنا بأسى.

«هاللو ! أسعيد تود مزحة ؟ حسنا أنا تحت أمرك . هأنذا أرقص حولك، أنط ، وأنبح ، وأدور . مستعد أنا لأى لحظة لهو وإثارة! انظر فى عينى إن كنت تشك. ماذا تريد؟ أن تمرح صاخبا فى حجرة الاستقبال (وتنسى الأثاث)؟ أن تخرج إلى الهواء الطلق البارد؟ أن تعدو عبر الحقول وعلى سفوح التلول وتنسى الزمان؟ تعال معى، تعال!».

أم تراك تحب أن تجلس هادئا تفكر؟ حسنا تستطيع القطة أن تجلس على يد الأريكة وهى تهر، ويمكن لمونتمورنسى أن يطوى نفسه ويرقد فوق السجادة، عين على المدفأة، وعين عليك أنت، فلربما تملكتك رغبة مفاجئة تجاه الفئران.

فإذا ما وضعنا وجهنا فى يدينا، وتمنينا لو لم نكن قد ولدنا، فإنهم لا يلوموننا ويقولون إننا قد جلبنا هذا على أنفسنا، بل إنهم لا يرجون أن يكون هذا تحذيرا لنا، ولكنهم يقتربون منا فى هدوء، ويدفعون رءوسهم فينا. القطة تقف عل كتفك وتداعب شعرك وكأنما تقول لك «مولاى! كم أنا حزينة من أجلك، يا صديقى العجوز!». أما الكلب فينظر إليك بعينيه الدامعتين، ويقول بهما: «حسنا! أنا لك طول العمر، سنمضى سويا فى هذا العالم. سيقف كل منا إلى جانب الآخر. أليس كذلك؟».

الكلب؟ الكلب أحمق . إنه لا يهتم أبدا أن يسأل إن كنت على صواب أو على خطأ، لا يقلقه أبدا إن كنت صاعدا على سلم الحياة أو هابطا، لا يهمه أبدا إن كنت ثريا أو فقيرا، أحمقا أو حكيما، مخطئا أو قديسا، هذا يكفيه. إنه متعلق بك. جاءك الحظ أم هجرك، حسنت سمعتك أم ساءت، جاءتك الرفعة أم الخزى! إنه ملازمك، ليريحك ، ليحرسك، ليهب حياته إذا لزم الأمر . إنه كلب أحمق أبله بلا روح!.

آه يا صديقى المخلص ، بعينيك العميقتين الصافيتين، بنظراتك الساطعة السريعة التى تفهم كل ما أريد أن أقول قبل أن أجد الوقت لأحكيه، ألا تعرف أنك لست سوى كلب بلا عقل؟ ألا تدرى أن هذا المغفل الأحمق السكير ذا الأعين الغبية الذى يستند على العمود هناك، هو

الأرفع منك ذهنا؟ ألا تدرى أن كل وغد أنانى يحيا بالغش والخداع، كل وغد لم يفعل فى حياته عملا مفيدا ولم يقل عمره كلمة طيبة، ولم تخطر بباله يوما فكرة ليست حقيرة وضيعة أو رغبة ليست منحطة، كل وغد لم يعرف غير الدجل، لم ينطق بغير الكذب، أو لا تدرى أن كل هذه الثعالب (ومنهم الملايين فى عالمنا) يفوقونك، وأن بينك وبينهم قدر ما بين الشمس والشمعة، أنت يا أيها الحيوان الشهم الشجاع؟ إنهم بشر - كما تعلم - والبشر هم الأكبر، هم الأنبل ، هم الأحكم، هم الأفضل فى كل هذا العالم السرمدى الهائل. يمكنك أن تسمع هذا من كل انسان!.

نعم يا كلبى العزيز المسكين، أنت غبى جدا، غبى جداً !! فى الحقيقة مقارنة بنا نحن الرجال الأذكياء، الذين يفهمون كل شئ فى السياسة والفلسفة، الذين - اختصارا - يعرفون كل شئ، إلا.. من نكون، ومن أين أتينا، وإلى أين نمضى، وماذا ترى يوجد خارج عالمنا هذا الصغير.

ورغم ذلك، فلا بأس يا أيتها القطط والكلاب . إننا نحبكم هكذا أغبياء . إننا جميعا نحب الأشياء الغبية. الرجال لايتحملون النساء الذكيات، والرجل المثالى عند المرأة هو من تسميه «عزيزى المسكين الغبى». إننا نسعد كثيرا عندما نقابل من هم أغبى منا. نحبهم على الفور لهذا السبب. يغدو العالم مكانا قاسيا بالنسبة للأذكياء. فالإنسان العادى يكرههم. أما فيما بينهم، فإن كلا منهم يكره الآخر من كل قلبه!

لكن الأذكياء لا يشكلون إلا أقلية ضئيلة جدا، ولا يهم إذن إن عاشوا تعساء. فطالما أمكن إسعاد الحمقى، فإن العالم - ككل - سيكون محتملا.

تتميز القطط عن الكلاب فى أنها أكثر دراية وخبرة بالحياة. هى تهتم بشئونها أكثر. هى لا تتهور فى إخلاصها للأصدقاء ومثل هذه الأنانية تصدمنا رجالا ونساء. المؤكد أن القطط تفضل عائلة بمطبخها سجادة، عن أخرى لا تمتلك مثل هذه السجادة. وإذا كان بالعائلة عدد كبير من الأطفال، فإنها تفضل أن تقضى أوقات فراغها عند الجيران. لكن القطط عموما حيوانات مظلومة. صادق قطة وستلتصق بك طول الوقت. كانت كل القطط التى اقتنيتها من أوفى الأصدقاء. كان عندى يوما قطة تعودت أن تتبعنى حيثما توجهت، حتى غدا الأمر محرجا، وكان علىّ أن أتوسل إليها أن تؤدى لى خدمة شخصية فلا تصحبنى لأبعد من الشارع الرئيسى. تعودت هذه القطة أن تسهر فى انتظارى إذا رجعت متأخرا، وأن تقابلنى فى الممر، حتى جعلتنى أشعر كما لو كنت متزوجا، سوى أنها أبدا لم تسألنى أين كنت، ثم لا تصدقنى عندما أخبرها.

ثمة قطة أخرى اقتنيتها تعودت أن تسكر بانتظام كل يوم. كانت تتسكع ساعات قرب باب حجرة المشروبات الروحية بالمنزل، بغرض الانسلال إلى الداخل عند أول فرصة تتاح، كى تلعق ما يتقطر من برميل البيرة الخشبى. أنا لا أذكر هذه العادة تمجيدا لجنس القطط، وإنما فقط لأبين كيف أن البعض منها يكاد يشبه البشر. لو أن تناسخ الأرواح كان حقيقة، إذن فإن هذا الحيوان لديه ما يؤهله ليكون مسيحيا! إن الغرور الذى يحيطها لايوازيه إلا حبها للشرب. فما أن تتمكن من

اصطياد جرذ سمين حتى تحمله إلى حيث نجلس، وتسجى الجثة أمامنا ثم تنتظر أن نمجد فعلها. ياالله ! ويالفزع البنات وصراخهن!.

ياللجرذان! يبدو أنها قد خلقت خصيصا من أجل أن تتمكن القطط والكلاب من قتلها، ويتمكن الكيماويون من الإثراء عن طريق ابتكار مركبات لتسميمها. لكن هناك شيئا ساحرا يحيط بها، ثمة شئ غريب غير عادى يكتنفها. هى ماكرة للغاية وقوية ، رهيبة فى تكاثرها، قاسية وغامضة. هى تجتاح المنازل المهجورة، حيث تتدلى النوافذ المكسورة متعفنة فوق الحوائط المنهارة، وحيث تتأرجح الأبواب على المفصلات الصدئة تصر وتصرف. هى تعرف أن السفينة ستغرق فتتركها، ولا أحد يعرف كيف ولا إلى أين. هى تسر إلى بعضها - فى أماكن اختبائها - عن المصير المشئوم الذى سيحل بالقاعة، فيسقط اسمها فى عالم النسيان. هى تقوم بأعمال مخيفة فى الأماكن الشنيعة التى تحفظ بها الجثث.

ليس ثم من قصة مخيفة تكتمل دون جرذان. ففى قصص الأشباح والسفاحين تجدها تفر عبر الحجرات ذات الصدى، وتسمع صوت أسنانها تقرض خلف الكسوة الخشبية، أعينها تلمع إذ تحدق من خلال الثقوب فى سجادة أكلتها الديدان، وصوتها الثاقب الغريب يصرخ فى جوف الليل البارد بينما الريح النائحة تندفع باكية حول الأبراج المتهدمة، وتمر مولولة كمثل امرأة، خلال الغرف الخاوية المهجورة.

والمساجين فى زنازينهم الكريهة يلمحون فى الظلام الرهيب أعينها الحمراء الصغيرة كجمرات فحم يلتمع فيها بريق بارد، ويسمعون فى

السكون الميت اندفاعها وصوت مخالب أرجلها، فيفزعون صارخين فى الظلام ولا تغمض لهم عين طول الليل.

أحب أن أقرأ الحكايات عن الجرذان، تصيبنى هذه الحكايات بالذعر! أحب قصة الأسقف هاتو والجرذان. كان لدى هذا الأسقف الشرير فى مخازنه قمح كثير، ولم يكن يسمح للجوعى أن يلمسوه. تضرعوا إليه. جمعهم فى مخزن الحبوب ثم أغلق الأبواب وأشعل النار فقتلهم جميعا. وفى اليوم التالى وصلت آلاف مؤلفة من الجرذان للقصاص منه. هرب الأسقف إلى برجه الحصين وسط نهر الراين، وحصن نفسه داخله وتصور أنه فى مأمن منهم. يا لهذه الجرذان! لقد سبحوا فى النهر وقرضوا طريقهم خلال الحوائط السميكة، وأكلوه حيا حيث كان يجلس:

شحذوا أسنانهم على الحجارة..
ثم تمكنوا من الأسقف..
وأكلوا اللحم من كل أطرافه..
فلقد جاءوا لتنفيذ حكم القصاص..
أواه ! يا لها من قصة رائعة..!

ثم هناك زمار هاملين الأرقط، الذى أغوى الجرذان فى البداية بمزماره بعيدا ، فلما نكث عمدة البلدة بعهوده، سحب أطفال البلدة جميعا معه ومضى بهم إلى الجبل! يا لها من أسطورة عتيقة غريبة! لا أعرف لها معنى، إن كان لها معنى ! يبدو أن ثمة شيئا غريبا عميقا يكمن خلف الإيقاع العذب! تؤرقنى صورة ذلك الزمار العجوز الغامض

الغريب إذ ينفخ فى مزماره عبر شوارع هاملين الضيقة، فيندفع خلفه الأطفال يرقصون بأوجه منتبهة متحمسة، يحاول الكبار منعهم فلا يبالون . هم يسمعون الموسيقى السحرية العجيبة. فكيف لهم أن يتركوها. تركوا لهوهم دون أن يكملوه، وسقطت لعبهم فما دروا، لايعرفون إلى أين هم ذاهبون . الموسيقى الغامضة تدعوهم، وهم يتبعونها مسحورين دون ما سؤال! إنها تحرك قلوبهم وتهزها، ويخفت ما عداها من أصوات. هاموا خلف الزمار الأرقط إلى خارج مدينة هاملين.

أتصور أحيانا أن الزمار الأرقط لم يمت بعد وأنه لايزال يطوف فى شوارعنا وحوارينا ينفخ مزماره، إنما فى رفق، فلا يسمعه غير الأطفال. وإلا.. فلماذا تبدو هذه الأوجه الصغيرة حزينة كئيبة إذا توقفوا لحظة عن اللهو، ولماذا إذن ذلك الذهول والأعين المجهدة؟ فإذا استفسرت منهم هزوا رءوسهم الصغيرة واندفعوا عائدين يضحكون إلى رفاق اللهو ! إننى شخصيا أعتقد أنهم كانوا ينصتون إلى الموسيقى السحرية يعزفها الزمار الأرقط العجوز، بل وربما كانوا يشاهدون هيكله العجيب الرائع بأعينهم الوضاءة وهو ينزلق غير ملحوظ بين الضجيج والازدحام !

وحتى نحن، الأطفال الكبار، نسمع عزف مزماره بين الحين والآخر.. سوى أن ألحانه تبدو بعيدة بعيدة، فهذا العالم العاصف المفعم بالضجيج يجأر دائما عاليا، حتى ليغرق اللحن الحالم. وسيأتى يوم

نسمع فيه هذه الألحان الحلوة الحزينة كاملة واضحة، فإذا بنا نحن أيضا – كالأطفال – نلقى بلعبنا جانبا ، ونتبعها . ستمتد أيدى أحبائنا إلينا لتبقينا، وستبكى تنادينا الأصوات التى تعودنا سماعها كى نقف، لكنا سندفع فى رقة هذه الأذرع الحانية، لنمضى عبر باب المنزل المفتوح! ذلك أن الموسيقى المجنونة ستكون فى قلوبنا تدوى، وسنكون آنئذ قد تفهمنا معناها!

وددت لو أحب الناس الحيوانات دون عواطف جياشة، كما يفعل الكثيرون حقا. النساء هُنَّ الأسوأ فى هذا الخصوص، لكن جنسنا العقلانى نفسه كثيرا ما يفسد الحيوانات الأليفة بحبه الأعمى السخيف. هناك فتيات رقيقات الشعور يقرأن «دافيد كوبرفيلد» فيبادرن!! باقتناء كلب صغير طويل الشعر ينتمى إلى سلالة يصعب تصنيفها، سلالة مولعة بانتقاد بنطلونات الرجال، ثم بالتعليق عليها فى نهاية الأمر بنشقة ازدراء وقرف . يتحدثن مع هذا الحيوان حديثا كله حماقات حلوة (إذا ما كان ثمة شخص قريب يمكنه سماع ذلك)، ويقلبن أنفه، ويضعن رأسه غير المغسول إلى خدهن بطريقة مؤثرة للغاية – وإن كنت قد لاحظت أن هذه الطقوس لا تؤدى إلا إذا كان هناك بعض الشباب على مقربة.

ثم هناك تلك المسنات اللواتى يعبدن كلب بودل سمينا مقطوع الأنفاس مليئا بالبراغيث. عرفت يوما اثنتين من العوانس المسنات تقتنيان منبارا ألمانيا محشوا ذا أرجل، كانتا تسميانه فيما بينهما كلبا. كانتا تغسلان وجهه بالماء الدافئ كل صباح، وكان إفطاره اليومى

شريحة من الكستليتة. وفى أيام الآحاد ، عندما تذهب واحدة منهما إلى الكنيسة، كانت الأخرى تبقى معه فى المنزل حتى لا يحس بالوحدة.

هناك الكثير من العائلات التى تتركز كل اهتماماتها فى الحياة، فى كلب . وعلى الذكر.. نادرا ما تعانى القطط من التملق الزائد، فلها إحساس رهيف جداً لا يتحمل السخف، إذ تدوس بمخلبها فى لطف وحزم فوق كل هراء من هذا القبيل. لكن الكلاب على ما يبدو تحبه. فهى تشجع أصحابها كى يقوموا بهذه الحماقات. ومن ثم يبدأ فى هذه الدوائر النقاش فى موضوع واحد مستمر يتعلق بما قد فعله «العزيز فيدو»، وما يفعله، وما سيفعله، وما لا يفعله ، وما يمكنه أن يفعل ، وما لا يمكنه أن يفعل، وما هو مقبل على فعله، وما يقوم الآن بفعله، وما سيقوم بفعله، وما كان يفعله، وما قد يفعله، وما هو فى سبيل القيام بفعله.. وهكذا وهكذا من الصباح حتى أن يحل المساء.

يوجه كل هذا الحديث - وهو كما ترى حثالة البلاهة - إلى الحيوان المذهول. تجلس العائلة بأكملها فى صف طول اليوم تراقبه، تعلق على أفعاله، يحكى كل للآخر الروايات عنه، يؤكدون فضائله، ويتذكرون ما نرفوه من دموع عندما فقدوه ذات يوم لمدة ساعتين كاملتين، وكيف أعيد إلى المنزل بطريقة غاية فى الوحشية يحمله صبى الجزار، وكان بعضهم قد قابل هذا الصبى قابضا عليه من قفاه بيد، مقيدا رأسه فى إحكام باليد الأخرى.

بعد أن يبل الجميع من هذه الذكريات المريرة، يبدأون فى التنافس فيما بينهم فى حجم عواطفهم نحو الحيوان الأعجم. ثم ينفعل أحد أفراد

الأسرة فلا يمكنه من فرط حماسه أن يسيطر على عواطفه فينقض على التعيس ذى الأربع فى مشاعر مشبوبة ويضمه إلى صدره، ويغمره بلعابه. إذ ذاك ينهض الآخرون ويوسعونه ثناء وتمجيدا!

يتم كل شئ مع هؤلاء من خلال الكلب. فإذا أردت أن تغازل الابنة الكبرى، أو أن تستعير آلة للحديقة من رب العائلة العجوز، أو إذا أردت من الأم أن تتبرع لجمعية إخماد عازف البوق المنفرد فى أوركسترا المسرح (يؤسفنى أن أخبرك أنه لا توجد مثل هذه الجمعية الهامة)، فعليك أن تبدأ بالكلب. عليك أن تكسب موافقته قبل أن يقبلوا الاستماع إليك.. وستفقد قضيتك إلى الأبد إذا كانت استجابة الكلب لمحاولتك عقد صداقة معه، هى أن يقوم بعضك فى وحشية.. وهذا أمر محتمل جدا بالنظر إلى انحراف طبيعته الكلبية الصريحة بسبب المعاملة غير الطبيعية التى تلقاها.

يعلق الوالد بعد تفكير قائلا: «إذا لم يستلطف فيدو شخصا، عرفت أنه شخص لا يوثق به. أنت تعرفين يا ماريا أننى أقول هذا كثيرا. آه! إنه يعرف! باركه الله!»

لعنه الله!

تذكر أن هذا الوحش الفظ كان يوما جروا بريئا ، كله أرجل ورأس، مليئا بالبهجة والحركة، ويطمح فى أن يصبح كلبا كبيرا طيبا يستطيع أن ينبح مثل والدته!

ويحى ! إن الحياة تغيرنا جميعا. يبدو العالم كله ماكينة طحن رهيبة هائلة، يدفع فيها من طرف كل ما هو ناضر وضاء نقى، ليخرج من الطرف الآخر عجوزا سيئ الطبع مجعدا!

انظر حتى إلى تلك القطة الرزينة، بنظرتها الفاترة الناعسة، بمشيتها البطيئة الوقورة، بمظهرها المبجل المحترم. من يتصور أنها كانت يوما تلك الشعلة الصغيرة، ذات العينين الزرقاوين، المندفعة، المليئة بالحركة، المتشقلبة، المجنونة ، التى كنا نسميها هريرة؟!

يا للحيوية الرائعة التى تملأ الهريرة. جميلة حقا تلك الطريقة التى تتدفق بها الحياة فى هذه الكائنات الصغيرة. تندفع، وتموء، وتقفز، وترقص على رجليها الخلفيتين، وتعانق كل شئ بقدميها الأماميتين، وتتدحرج ، وتتدحرج وتتدحرج، وترقد على ظهرها وترفس ! إنها لا تعرف ماذا تفعل بنفسها . الحياة تملؤها!

أو تذكر يا قارئى العزيز أيام كنا نحس بنفس هذا الإحساس؟ أو تذكر رائع أيام شبابنا الغض ، عندما كنا نمشى على طول طريق غمره القمر بنوره فنشعر أن ما يعتمل فينا من حياة لا يقبل مثل هذه المشية الرزينة، وأن علينا أن نقفز وأن نثب فرحا ، وأن نلوح بأيدينا، وأن نصيح حتى لتظن الفلاحات العائدات فى المساء - ومعهن حق - أننا قد جننا، فيسرن خائفات قرب السور، بينما نقف نحن نضحك عاليا نرقبهن وقد أسرعن، ثم نصرخ قبل أن نرحل فنملؤهن رعبا! ها تعود إلى مآقينا دموع لا ندرى لها سببا ! آه تلك الحياة الشابة الرائعة ! التى توجتنا ملوكا على الأرض، التى اندفعت فى كل شريان فينا ينبض، فعدونا كما لو كنا نسير على الهواء، التى تدفقت إلى رءوسنا الخافقة وأمرتنا أن نمضى فنهزم العالم كله، التى تفجرت فى قلوبنا الشابة حتى

لنمد أذرعنا مشتاقة لنضم إلى صدورنا كل المتعبين من رجال ونساء، نضمهم ونحبهم جميعا، جميعا. آه ، يا لها من أيام عظيمة عميقة هائلة، عندما كانت حياتنا الواعدة تصدح فى آذاننا بموسيقى عذبة مشتاقة، كمثل أرغن لا نراه، فيصرخ فينا دمنا الشاب كخيل الحرب تركض نحو المعركة! آه، ها قد غدت نبضاتنا بطيئة مستقرة، ها قد أصيبت مفاصلنا العجوز بالروماتيزم، ها قد غدونا نحب كرسينا الوثير، نجلس عليه، ندخن الغليون ونسخر من حماس الصبية. لكن آه، آه لو عادت لنا لحظة قصيرة من تلك الأيام الخوالى العذبة! .

***

(٩)
عن الخجل

كل أديب خجول، وأنا خجول، وإن كانوا يقولون إنه من الصعب ملاحظة ذلك .

حمدا لله أنهم لا يلحظون خجلى. كان واضحا منذ زمن، وكان يسبب تعاسة كبيرة لى، وانزعاجا لكل من هم حولى.. كانت صديقاتى بالذات يشتكين منه مر الشكوى .

إن حياة الشخص الخجول ليست بالسعيدة . فالرجال يكرهونه والنساء يحتقرونه، وهو يكره نفسه ويحتقرها . الحياة لا تريحه، وليس من علاج له سوى الزمن ـ وإن كنت قد صادفت مرة وصفة لذيذة للتغلب على هذه البلية، ظهرت فى باب «أنت تسأل ونحن نجيب» فى مجلة أسبوعية صغيرة. كانت تقول: «اتخذ سلوكا عفويا بسيطا، لاسيما نحو النساء» .

ياللخجول التعيس! أتصور البسمة العريضة التى لابد وقد ملأت وجهه عقب قراءة هذه النصيحة : «اتخذ سلوكا عفويا بسيطا، لاسيما نحو النساء» ! إياك أن تتخذ مثل هذا السلوك ياصديقى الشاب الخجول. إن أى محاولة للتصرف على غير طبيعتك ستتسبب ـ بكل

تأكيد - فى أن تبدو كالأبله. لا تكن غير نفسك، ولن يصفك أحد عندئذ إلا بأنك فظ غبى!

يود الرجل الخجول أن ينتقم من المجتمع بسبب العذاب الذى ينزله به. وهو يستطيع أن ينقل بعضا من بؤسه الى الآخرين. إنه يصيب الآخرين بالرعب بقدر ما يرعبونه. هو يسبب الانقباض لكل من حوله، وفى وجوده يتحول جو المرح الى كآبة وعصبية .

لكن الكثير من هذا يحدث بسبب سوء الفهم، فالكثيرون يخطئون فهم جبن الرجل الخجول ويرون فيه عجرفة مفرطة يحسون معها بالرهبة والإهانة، كما أنهم يمتعضون من سماجته ويعتبرونها إهمالا وقحا، فاذا ما اندفع الدم الى رأسه حين يملأ الذعر قلبه مع أول كلمة توجه اليه، فتخذله قدرته على الكلام تماما، اعتبروه مثالا فظيعا للآثار البغيضة للاستسلام للعاطفة.

الحق أن سوء التفهم هو قدر الرجل الخجول فى كل آن. إيا كان الانطباع الذى يحاول خلقه فالمؤكد أنه سينقل الى الناس عكسه. فاذا ما ألقى نكتة اعتبرت قصة زائفة لا تنقل الحقيقة، وشجبوا عدم دقته، تهكمه يؤخذ على أنه رأيه الشخصى، الأمر الذى يؤهله للقب «حمار». أما إذا أراد ممارسة بعض الغزل - محاولا أن يدلل نفسه - فإن غزله يحسب هجاء ، فيكرهونه الى الأبد !

هذه - وغيرها - من متاعب الرجل الخجول، عادة ما تكون أمورا مسلية بالنسبة للآخرين، ولقد كانت مادة مفيدة للكتابات الهزلية من قديم الأزل. لكنا اذا نظرنا نظرة أعمق، فسنجد ثمة وجهة أخرى

للصورة مثيرة للشفقة ، بل وقد نقول تراجيدية. فالرجل الخجول ليس الا رجلا وحيدا، رجلا بلا صحاب، بلا علاقات اجتماعية. إنه يتحرك فى العالم، لكنه لا يختلط به . هناك حاجز لا يمكنه تخطيه يفصل بينه وبين الناس، حائط متين غير مرئى، يحاول عبثا أن يتسلقه فلا يصيبه غير الكدمات. يرى الأوجه الجميلة، ويسمع الأصوات الحلوة على الناحية الأخرى، لكنه لا يستطيع أن يمد يده عبر الحائط ليمسك باليد الأخرى. يقف يراقب الجماعات المرحة، فيشتاق أن يتكلم وأن يؤكد أنه منهم، من عشيرتهم، لكنهم يتخطونه وهم يتحدثون فى مرح مع بعضهم البعض، ولايستطيع هو أن يجاريهم. يحاول أن يصل اليهم، لكن حوائط سجنه تتحرك معه وتحيط به من كل جانب . فى الشارع المكتظ، فى الحجرة المزدحمة، فى طاحونة العمل، فى دوامة البهجة، وسط الكثرة، وسط القلة، حيثما يحتشد الرجال، حيثما تسمع أحاديث الناس، وحيثما يلمع فكر بشرى من عين بشرية، هناك سنجد الرجل الخجول منعزلا منبوذا وحيدا يتجنبه الجميع. روحه تمتلىء حبا وشوقا، لكن العالم لا يعرف. قناع الخجل الحديدى مثبت أمام وجهه ، والرجل الداخلى فيه لا يبين أبدا، تتشكل الكلمات الكريمة والتحيات القلبية على شفتيه، لكنها تخفت وتضيع فى همسات غير مسموعة خلف المشد الحديدى . يوجعه قلبه إن رأى أخاه الحزين، لكن عطفه أبكم. يختنق فى حلقه الازدراء والمقت والسخط تجاه الظلم، ولكنه لا يجد صمام الأمان، فيخذله التعبير، وينقلب الى داخله فيؤذيه. كل البغض، كل الازدراء، كل الحب العميق،

كل ما ابتلى به الخجول من مشاعر، كلها تتقيح وتفسد داخله، لا تخرج، فإذا هو متجهم كاره متشائم .

نعم، يحيا الرجل الخجول ـ كالمرأة القبيحة ـ حياة قاسية فى هذا العالم، راحته تتطلب جلدا كجلد الخرتيت . إن الجلد السميك ـ فى الحق ـ هو رداؤنا الأخلاقى، وبدونه لا نصلح للظهور فى المجتمع المتحضر . ليس من يحب أن يرى كائنا مسكينا لاهثا مرتبكا مرتجفا مرتعش اليد، فإذا لم يتمكن مثل هذا الكائن من أن يعالج نفسه، فعليه أن يشنق نفسه بأسرع ما يمكن!

من الممكن أن يعالج هذا المرض. ويسعدنى أن أقرر هذا عن تجربة شخصية. أنا لا أحب أن أتحدث عن نفسى، ولعلك قد لاحظت ذلك، لكننى الآن ـ ومن أجل خير البشر ـ سأتحدث عن نفسى.. أعترف بأننى كنت يوما كما قال أحدهم «أخجل من يخجل» ، وأننى «كنت اذا ما قدمنى أحدهم لفتاة جميلة ارتجفت واهتزت ركبتاى كما لو كنت خائفا». واليك الآن ما حدث أول من أمس على وجه التحديد.. كنت وحيدا لا أحد معى عندما تحديت مضيفة شابة بالقطار فى عقر دارها. عنفتها، وكان تعنيفى لها فى مرارة تمتزج بالأسى، لقسوتها وحاجتها الى الكياسة واللطف. ثم اننى أصررت ـ فى لطف وإنما بحزم ـ على أن تمنحنى الاحترام والعناية التى هى حق لكل مواطن انجليزى على سفر فى قطار. وفى النهاية، واجهتها بجرأة كاملة. هل الأمر يحتاج أكثر من هذا؟

الواقع أننى تركت المكان مباشرة بعد هذا فيما قد يبدو تهورا ، ودون أن انتظر المرطبَات. لكن هذا لم يحدث إلا لأننى كنت قد غيرت رأيى ولم أعد أحتاج المرطبات، وليس ـ كما تعلم ـ لأننى كنت خائفا .

ثمة عزاء يجب أن يعيه كل خجول، هو أن الخجل ـ بكل تاكيد ـ ليس دليلا على الغباء. من السهل على كل أبله أحمق أن يكون وقحا، لكن الكبار لا يحملون بالضرورة أكبر قدر من الوقاحة، فالحصان ليس أدنى درجة من ذكر العصفور ، ولا الغزال أدنى من الخنزير. الخجل ببساطة يعنى الحساسية الفائقة، ولا علاقة له على الاطلاق بوعى الانسان بذاته ولا بالغرور، وإن كانت مدرسة الثرثرة الفلسفية كثيرا ما تؤكد وجود هذه العلاقة.

إن الغرور فى الحق هو أسرع وسيلة لعلاج الخجل. فعندما تصل الى مرحلة تتصور فيها أنك أذكى من كل البشر، عندئذ يصاب الخجل بصدمة ويرحل عنك. عندما يمكنك أن تنظر فى حجرة مليئة بالناس، ثم تتخيل أن كل من تراه ليس سوى طفل، مقارنة بك، فلن تشعر معهم بالخجل باكثر مما تشعر مع مجموعة مختارة من الغربان والقردة!

إن الغرور هو أجمل درع يمكن للرجل أن يرتديه، فعلى سطحه الناعم تطيش طعنات خناجر الحقد والحسد ولاتخترقه. وبغير صفيحة الصدر المعدنية لا يمكن لسيف الموهبة أن يشق طريقه فى معركة الحياة ـ ذلك أنك لابد أن تتلقى الطعنات مثلما تسددها. أنا لا أتحدث بالطبع عن الغرور الذى تشمخ فيه بأنفك وتتحدث بصوت متكلف. هذا ليس الغرور الحقيقى، هذا ليس سوى عبث كعبث الأطفال عندما يمثلون دور

الملك والملكة ثم يمضون يتبخترون على رءوسهم الريش وخلفهم يجرون قطارا طويلا. إن الغرور الحقيقى لا يجعل الانسان بغيضا. على العكس، إنه يجعله لطيفا طيب القلب بسيطا. ليس ثمة حاجة الى التكلف، انه راض تماما عن شخصيته، وكبرياؤه أرسخ وأعمق من أن تبدو على مظهره، هو قادر على أن يقول الصدق، فالإطراء لا يهمه ولا اللوم. هو يسمو كثيرا - فى الوهم - فوق بقية البشر، فكيف يهتم بتفوقهم التافه. انه يجالس الدوق مثلما يجالس بائع الفاكهة المتجول. هو لا يحترم غير مقاييسه هو، ولا يغريه أن يقدم القرابين لآراء الآخرين كما يفعل من هم أقل ثقة بأنفسهم.

الخجول - على العكس من ذلك - رجل متواضع .. متواضع فى حكمه على نفسه، متلهف للغاية فيما يختص برأى الآخرين فيه. ولا بأس فى هذا بالنسبة للشاب. فشخصيته لم تتبلور بعد، انها مازالت تتشكل - فى بطء - عن فوضى من الشك والجحود. يتراجع الحياء أمام تنامى البصيرة والخبرة. ومن النادر أن يحمل الرجل حياءه بعد فترة المراهقة. فحتى اذا لم تطرحه قواه الداخلية بعيدا. فإن الاحتكاك بالحياة عادة ما يهدئه. يندر بالفعل أن نقابل رجلا خجولا الا فى الروايات وعلى خشبة المسرح، حيث - على الذكر - يعجب به الجميع، لاسيما النساء!

هناك .. فى عالم المسرح - الخارق للطبيعة - يظهر الخجول شابا أشقر كالملاك الطاهر (فصفتا الشعر الأشقر والطيبة متلازمتان على المسرح، والجمهور المحترم عادة ما يقرن هذه بتلك). أعرف ممثلا فقد

مرة باروكته، وكان عليه أن يندفع الى خشبة المسرح بشعره الطبيعى ليمثل دور البطل، واذا بالجمهور يصرخ ويصفر مع كل جملة عاطفية يتفوه بها. ظنا منهم أنه الشخصية الشريرة. هذا الرجل الخجول يعشق البطلة، يعشقها باخلاص (انما على انفراد، فهو لا يجرؤ على أن يخبرها بذلك) . وهو نبيل للغاية ، صوته خفيض ، يحنو على السيدة والدته ويعاملها بطيبة بالغة. لكن أشرار الرواية يضحكون منه ويسخرون، فيبتلع سخريتهم فى هدوء. ثم يتضح فى النهاية أنه رجل فى غاية الذكاء ولم يكن هناك من يعرف ذلك . واذا بالبطلة تعترف له بأنها تحبه، فتصيبه الدهشة ويغدو سعيدا. الناس كلهم يحبونه، ويسألونه المغفرة، فيغفر لهم بكلمات قليلة يختارها بعناية، ثم يباركهم، كل ذلك فى سعادة ونشوة تجعل كل شاب غير خجول يتمنى أن يكون خجولا . غير أن الرجل الخجول حقا يعرف أكثر. يعرف أن الأمر ليس بهذا الصفاء الرائع . يعرف أنه ليس بالشخص المثير، لا فى الحياة ولا فى الروايات. يعرف أنه أكثر ثقلا وغباء وأنه أقل اخلاصا ورقة. ثم أن شعره داكن وليس أشقر . وكل هذه الصفات مجتمعة تغير من وجه القضية كثيرا .

أما موضع الشبه بينه وبين البطل فهو الاخلاص. إننى مستعد تماما لأن أسلم للخجول بهذه الفضيلة، فهو ثابت فى حبه. وليس من الصعب تفهم السبب. فالواقع أن مواجهة امرأة واحدة تستهلك كل مخزونه من الشجاعة، حتى ليغدو من المستحيل أن يمضى الى هذا العذاب مرة ثانية. انه يحس برعب بالغ من جنس النساء بأكمله ولا يتصور أن بامكانه التسكع مع عدد كبير منه.. واحدة تكفى !

لكن الأمر يختلف بالنسبة للشاب غير الخجول، فهو يتعرض لاغراءات لا يواجهها أخوه الخجول أبدا . انه ينظر حوله، فيرى فى كل مكان أعينا خبيثة وشفاها ضاحكة. أليس من الطبيعى اذا ما وجد نفسه بين كل هذه الأعين الخبيثة والشفاه الضاحكة أن يصاب بالارتباك فيختلط عليه الأمر ولا يعرف الى أى زوج من الأعين ينتمى، فيمضى ليغازل زوجا من الأعين الخطأ؟ إن الخجول الذى لا ينظر الا الى حذائه، لا يرى شيئا، ومن ثم فلن يغويه شىء. لكم هو سعيد ذلك الخجول !

أنا لا أعنى أن الرجل الخجول نفسه يمانع فى أن يتمكن من هذه السعادة. إنه يشتاق أن «يتهور» مع الآخرين، وهو يلعن نفسه كل يوم لأنه لايستطيع ذلك، وتجده مابين الحين والحين يجمع شجاعته بمجهود هائل ويقحم نفسه فى دائرة الخبث. لكنه عادة ما ينتهى الى اخفاق رهيب. وبعد أن يتعثر مرة أو مرتين نجده يزحف خارجا، مترنحا فى حالة يرثى لها .

أقول «فى حالة يرثى لها» ، وإن كنت أعتقد أن أحدا لا يرثى له. ثمة محن تكتسب لضحاياها الشفقة بالرغم من أنها تنزل بهم قدرا وافرا من العذاب، محن مثل : فقد المظلة، الوقوع فى الحب، آلام الأسنان، الكدمة حول العين، جلوس شخص على قبعتك - اذا ذكرنا القليل . لكن الخجل هو أهم هذه المحن جميعا . الخجول يعتبر نكتة متحركة. وتغذيه رياضة قاعات الاستقبال، وعادة ما يتخذ موضوعا يناقش باستمتاع كبير .

يصيح واحد من الجمهور وهو يضحك نصف ضحكة، مخاطبا آخر: «انظر، إن وجهه يحمر خجلا !» .

فيقول الآخر : «راقب رجليه» .

ويضيف ثالث : «لاحظ كيف يجلس. انه يجلس على حافة المقعد» .

وهنا ينخر شخص له هيئة عسكرية ويقول : «يبدو أن فى جعبته الكثير من الألوان!» .

ثم تدمدم سيدة مسنة وهى تطوى يديها بهدوء على حجرها: «كم يدا يمتلك هذا الشاب، انها تسبب له الارتباك والحيرة» .

عندئذ يصيح شخص هازل قائلا : «إن إزالة ياردة أو ياردتين من قدميه لن تؤذيه كثيرا، لا سيما إنه يحاول جاهدا أن يخبئهما !» .

هنا يقترح آخر أن صوته يؤهله لأن يكون قبطانا بحريا. ثم يلفت آخر الانتباه الى الطريقة اليائسة التى يحاول بها امساك قبعته. ثم يعلق البعض على قدراته المحدودة على المحادثة، ويشير آخرون الى الطبيعة المزعجة لسعاله. وهكذا الى أن تستنفد كل خصائصه وكل الصحبة !

ثم إن أصدقاءه وأقاربه يزيدون له الطين بلة (يتميز الأصدقاء والأقارب بأنهم أسوأ من بقية خلق الله)، إنهم لا يكتفون بالاستهزاء به فيما بينهم، وانما يصرون على أن يفهموه النكتة، يقلدونه ويشوهون صورته من أجل تثقيفه وتنويره. فيخرج واحد منهم متظاهرا بتقليده، ثم يدخل بطريقة عصبية مضحكة، ثم يشرح له فيما بعد أن هذه هى طريقته (أى طريقة الخجول) فى الدخول الى الحجرة. أو قد يتوجه اليه

مسلما قائلا «هذه هى طريقة مصافحتك للناس»، ثم يمضى فى مصافحة كل الموجودين بالغرفة بطريقة هزلية ايمائية، فيمسك بيد كل منهم كما لو كانت لوح تسخين، ثم يتركها فجأة فى طراوة لتسقط. ثم انهم يسألونه لماذا يحمر وجهه؟ ولماذا يفأفئ؟ ولماذا يتكلم دائما بصوت لا يكاد يسمع - كما لو كانوا يظنونه يفعل ذلك عمدا؟ ثم يقوم واحد منهم بدفع صدره للخارج وابرازه، ويتبختر فى الحجرة كمثل الحمام الهزاز، ثم يقول له إن عليه أن يمشى هكذا. ويخبط والده على ظهره قائلا: «كن شجاعا ياولدى، ولا تخش أحدا». ثم تقول أمه : «لا تفعل ما يسبب لك الخجل يا ألجيرنون، وعندئذ فلن تخجل من أفعالك». تقول له هذا ثم يشرق وجهها فجأة اذ تكتشف نصاعة المنطق فى قولها. يخبره أقرانه بأنه «أسوأ من البنات»، وترفض البنات التهمة المضمنة فيصرخن ساخطات بأنهن متأكدات أنه لا توجد فتاة بمثل هذا السوء، أو حتى نصفه .

وهن على حق . فليس ثمة بنت مثله . ليس ثمة ما يسمى بالمرأة الخجول، أو بالأحرى ، ليس ثمة امرأة خجول مرت بى . والى أن ألقى واحدة لن أصدق الفكرة، أعرف أن الاعتقاد السائد هو عكس ما أقول. فالمفروض أن كل النسوة كالظباء الصغيرة رقة وإجفالا، يحمر منهن الوجه ويغضضن من بصرهن اذا نظرت اليهن، ويولين الأدبار اذا تحدثت اليهن. بينما يفترض فينا نحن الرجال أننا زمرة جريئة مرحة، وأن النسوة المسكينات الصغيرات يعشقننا لهذا السبب، وان كان

خوفهن منا رهيبا لا يوصف. إنها نظرية جميلة، لكنها مثل معظم النظريات المقبولة، مجرد لغو فارغ. إن الفتاة ذات الاثنى عشر ربيعا تتميز بضبط النفس، وهى باردة ـ كما يقولون ـ مثل الخيارة . أما شقيقها نو العشرين ربيعا فهو بجانبها يفأفئ: تدخل المرأة قاعة الكونشرتو متأخرة، وتوقف العرض، وتقلق كل الجمهور ، نون أن تتحرك منها شعرة، وخلفها يدخل زوجها خجولا محطما يعتذر فى تعاسة ! .

إن الجرأة الفائقة للنساء فى كل الأمور المتعلقة بالحب ـ بدءا بالنظرة الأولى الخجلى وحتى نهاية شهر العسل ـ هى أمر لا يحتاج الى تعليق. إن الحب هو مهمة المرأة وعملها، وعندما يرتبط الأمر بالعمل فإنا جميعا ننحى ضعفنا الطبيعى جانبا .. إن أخجل من عرفت من الرجال كان عمله هو التلصص بالكاميرا ..! .

(١٠)

عن الأطفال الرُّضَّع

نعم.. نعم .. أنا أعرف عنهم الكثير. كنت يوما ما واحدا منهم، وإن كان ذلك لم يستمر فترة طويلة. فترة لم تكن فى طول ملابسى. كانت ملابسى طويلة جدا - مازلت أذكر - وكانت دائما ما تقف فى سبيلى عندما أريد أن أرفس. لماذا يحمل الرضع كل هذه الأطوال من الملابس غير الضرورية؟ هذه ليست أحجية. إننى أريد أن أعرف حقا. عمرى ما فهمت السبب. أهى لأن الوالدين يخجلان من وليدهما، ويريدان أن يعتقد الناس أنه أطول من حقيقته؟ سألت إحدى الممرضات يوما فأجابت :

- يالله ياسيدى! إن ملابسهم دائما طويلة، بارك الله فيهم وحواليهم. وعندما ذكرت لها أن اجابتها ليست مقنعة - برغم ما تحمله من رقة الشعور - أجابت :

- يالله ياسيدى ! أنت لا تحب أن تراهم فى ملابس قصيرة، هؤلاء الصغار الأعزاء !

قالت هذا بلهجة توحى بأننى قد اقترفت اساءة بالغة .

من ذلك الحين أصبحت أشعر بالخجل من الاستفسار عن هذه المسألة، كما أن السبب - إن كان ثمة سبب - لا يزال بالنسبة لى لغزا .

لكن الحقيقة إننى أرى أن مجرد إلباسهم الملابس من أصله هو أمر سخيف. يعلم الله أن ثمة ما يكفى الفرد من ارتداء الملابس وخلعه إياها، طيلة حياته، أفيلزم إذن أن نبدأ المهمة قبل أن نحتاجها؟! إن حياة السرير على أية حال لا تتطلب كل هذا العذاب. لماذا نوقظ هؤلاء المساكين الصغار كل صباح، لنخلع ملابسهم ونلبسهم غيرها، ثم نعيدهم الى السرير ثانية. ثم - عندما يأتى المساء - نوقظهم مرة أخرى لمجرد أن نعيد تغيير ملابسهم. واذا ما تم ذلك، فبالله قل لى ما الفارق بين قميص نوم الرضيع والقميص الذى يرتديه بالنهار ؟

ربما كنت قد جعلت نفسى الآن سخيفا - وأنا أفعل ذلك كثيرا ، هكذا أخبرونى - ومن ثم فلن أستمر فى الحديث عن موضوع الملابس، سوى أنه سيكون من دواعى سعادتى أن يتمكن بعضهم من ابتكار زى يمكنك من تمييز الولد من البنت .

إن الوضع الآن محرج للغاية. فلا شعر الرضيع ولا ملابسه ولا حديثه يعطيك أدنى فكرة عن جنسه، ومن ثم لا يبقى أمامك سوى التخمين. ثمة قانون غامض من قوانين الطبيعة يقول إن تخمينك لابد أن يكون خطأ، وعلى هذا فإن كل الأقارب والأصدقاء سيجدون فيك مزيجا بين الحماقة والسذاجة. إن شناعة أن تنادى رضيعا ذكرا قائلا «أنتِ» (بكسر التاء) لا يدانيها إلا أن تنادى الأنثى بقولك «أنتَ» (بفتح التاء).

أيا كان الجنس الخطأ للرضيع الذى نحن بصدده. فهو الجنس المحتقر، والتلفظ به يعتبر اهانة شخصية للعائلة .

فإذا كنت تخاف على اسمك وسمعتك، فإياك أن تحاول الخروج من المأزق بأن تقول عنه «هذا الشيء» . ثمة طرق متعددة يمكنك بها أن تحقق لنفسك الخزى والعار. فلقد تقتل عائلة كبيرة محترمة مع سبق الإصرار والترصد، ثم تلقى الجثث فى الخزان التابع لشركة المياه، وبذا تفقد شعبيتك فى المنطقة المجاورة لمحل جريمتك. ولقد تسرق كنيسة، فيكرهك الناس من صميم قلوبهم، لاسيما الكاهن. لكنك اذا طمحت ان تشرب - حتى الثمالة - أكبر كأس من الازدراء والكره يمكن لبشر أن يقدمه، فلتدع أمًّا تسمعك تنادى وليدها قائلا «هذا الشيء» .

إن أفضل خطة هى أن تطلق على الذكور اسم «الملاك الصغير» ، فالملاك لا جنس له ، وهو يوافق الوضع بجمال، وستقابل هذه الصفة - مؤكدا - بالاستحسان . ثمة ألفاظ أخرى يمكنك استخدامها بغرض التنويع كمثل «الحبوب» أو «الخفة» ، لكن «الملاك» هو المصطلح الذى تحظى به على أفضل تقدير لحسن ادراكك وشعورك الطيب. لابد أيضا أن تسبق هذا المصطلح بقهقهة قصيرة يصحبها أكبر قدر يمكنك بذله من الابتسام. وأيا كان ما تفعله، فلا تنس أن تذكر أن الوليد له أنف السيد والده، ذلك أن هذا «يزغزغ» الوالدين (اذا سمحت لى باستخدام هذا اللفظ السوقى) أكثر من أى شيء آخر . سيتظاهران فى البداية بالضحك ويقولان «هراء!» . عندئذ يلزم أن تنفعل، وتصر على أنك لم تقل سوى الحقيقة . لاحظ ألا يصيبك أدنى قدر من التردد فى تأكيدك

هذا ، ذلك أن أنف هذا الشيء يشبه بالفعل أنف والده - تماما مثلما يشبه كل شيء آخر في الطبيعة - فهو على أية حال ليس بأكثر من بقعة!

لا تهزأ ياصديقى بهذه الأفكار . فلقد يأتى وقت تجد فيه الوالدة فى ناحية، والجدة فى الأخرى، والى الخلف مجموعة من السيدات المعجبات (وإن كان إعجابهن ليس موجها اليك)، وإلى الأمام حامى حمى الانسانية الأصلع . هناك ياصديقى ستحمد الله لو كنت تعرف شيئا تقوله . لا يحرج الرجل - أعنى الرجل الأعزب - مثل العذاب الذى يلاقيه عند «رؤية وليد» جديد، إذ تسرى فى ظهره رجفة باردة بمجرد سماعه الفكرة. سيبتسم بسمة سقيمة يقول بها كم سيسعده ذلك، الأمر الذى يحرك قلب الأم، الا اذا كان الموضوع كله - كما أعتقد - مجرد خدعة تدبرها الأمهات فى محاولتهن ثنى الأصدقاء العزاب عن الزيارة .

إنها لعبة وحشية ، أيا كان مبررها ، يضغط على الجرس ، ويمضى بعضهم ليطلب من الممرضة أن تحضر الوليد . تكون هذه الإشارة لكل الإناث الحاضرات كى يبدأن «حديث الوليد». وتترك أنت لأفكارك الحزينة، ولتأملاتك، كيف ستدّعى أنك تذكرت فجأة موعدا غاية فى الأهمية، وما هى احتمالات تصديقهم لهذا الادعاء. وفى اللحظة التى تنتهى فيها من تأليف قصة منتحلة سخيفة غير قابلة للتصديق عن رجل ينتظرك فى الشارع، يفتح الباب، ومنه تدلف امرأة طويلة حادة الملامح تحمل بين يديها ما يبدو للوهلة الأولى مخدة نحيفة للغايةً تجمّع كل حشوها فى ناحية منها . على أن غريزتك تخبرك أن هذا هو الوليد، فتنهض فى محاولة بائسة للظهور بمظهر المتلهف. وعندما يخفت تدفق

الحماس النسائى الأول ، ويتناقص عدد النسوة المتحدثات فى نفس الوقت الى أربع أو خمس ، تنفرج دائرة النساء ويفسح الطريق أمامك للتقدم. فتتقدم ، تتقدم كما لو كنت تدخل قفص الاتهام فى محكمة، يملؤك البؤس المقيم. ثم تقف فى وقار تحدق فى الطفلة . يعم الصمت التام. تحس بأن كل من فى المكان ينتظر كلماتك. تحاول أن تفكر فى شىء تقوله. لكنك ستكتشف - يا للرهبة - أن كل قدراتك الذهنية قد تخلت عنك. يالها من لحظة يأس! لكن عفريتك الشرير ينتهز الفرصة فيقترح لك بعضا من أحمق التعليقات التى يمكن لبشر أن يرتكبها! تنظر حولك وعلى وجهك بسمة بلهاء، ثم تسأل بضحكة مكتومة : «ليس ثمة الكثير من الشعر على الرأس، أليس كذلك؟» ، الصمت يلف المكان ثانية ولا أحد يجيبك. ثم - بعد دقيقة - اذا بالمرضة الجليلة تقول فى رزانة بالغة : «ليس من المألوف أن تجد شعرا طويلا لطفلة عمرها خمسة أسابيع». يعود الصمت يلف المكان، وتشعر أنهم يمنحونك فرصة أخرى، فتستغلها فى التساؤل عما اذا كانت الوليدة قد بدأت تمشى، وعما يا ترى يقدمونه لها من غذاء .

هنا سيعتبرك الجميع - بكل تأكيد - شخصا مختل العقل ، ولن يشعر أى منهم نحوك الا بالشفقة. على أن الممرضة تكون قد صممت - أيا كان مدى اختلال عقلك - الا تتركك تهرب دون أن تكمل مهمتك الى غايتها ، فاذا بها تدفع اللفة نحوك وتقول بلهجة كاهنة تؤدى بعض الطقوس الدينية: «خذها ياسيدى!» . أنت قد وصلت درجة من الانهيار لا يمكنك معها المقاومة ، فتتقبل الطفلة فى لطف. هنا تقول الكاهنة :

«ضع ذراعك تحت وسط الطفلة ياسيدى!» ثم يتراجع الجميع الى الخلف خطوة أو خطوتين يرقبونك باهتمام، كما لو كنت ستقوم مع الطفلة بخدعة ما .

أنت لا تعرف ماذا تفعل. تماما كما كنت لا تعرف ماذا تقول . لكن من الضرورى أن تفعل شيئا. أول ما يخطر ببالك هو أن تلقى بالطفلة المعذبة الى أعلى ثم تلقفها، فى مصاحبة أغنية رقيقة، أو ما يضارعها ذكاء. هنا تقول الممرضة : «لا تهز الطفلة ياسيدى، لو سمحت، إن هذا يزعجها» . هنا تقرر فورا أن تتوقف عن هزها. ثم تأمل مخلصا ألا تكون قد تماديت فى هزها كثيرا. عندئذ تقوم الطفلة نفسها ـ وكانت حتى الآن ترقبك بتعبير يختلط فيه الرعب بالقرف ـ تقوم بوضع حد لهذا العبث، ذلك بأن تبدأ فى الصراخ بأعلى صوتها . تندفع الكاهنة اليك وتخطفها منك قائلة : «حاسب ، حاسب، ماذا فعلت؟!»، تقول أنت فى دماثة : «غريب أمرها!» ، فتقول الأم : «ما الذى جعلها تصرخ هكذا؟ أنت بالتأكيد قد فعلت شيئا ضايقها ، فالطفلة لا تصرخ هكذا بلا سبب!» ، الواضح أنهم جميعا يعتقدون أنك كنت توخزها بالابر !

أخيرا تسكت الطفلة المزعجة ، والمؤكد أنها كانت ستمكث هكذا صامتة، لولا أن شخصا فضوليا عابثا يختارك ثانية ويشير اليك قائلا للطفلة : «من هذا ياصغيرتى؟» . وهنا تتعرف عليك الطفلة الذكية فتنخرط فى صراخ لم تؤده قبلا !

اذ ذاك تنبرى سيدة عجوز سمينة لتقول : «شئ غريب أن يكره الأطفال البعض منا» فتقول أخرى فى صوت يكتنفه الغموض: «أوه !

الأطفال يعرفون» ، ثم تضيف : «إنه لشيء رائع!». وعندئذ يشيح الجميع عنك بوجوههم، بعد أن اقتنعوا تماما أنك وغد زنيم، وتملؤهم البهجة والغرور لأنهم قد كشفوا عن شخصيتك الحقيقية التى لم يتمكن منها زملاؤك، بعد أن فضحتها الغريزة العفوية لهذه الطفلة الصغيرة.

على أن الأطفال الرضع - برغم كل جرائمهم وأخطائهم - ليسوا بلا فائدة. هم يفيدون بالتأكيد عندما يملأون قلبا فارغا، هم يفيدون بالتأكيد عندما ينادون ، فتسلل أشعة الحب الى أوجه غلفتها سحب الهموم ، هم يفيدون بالتأكيد عندما تتحرك أصابعهم الصغيرة فتحيل العبوس إلى بسمات.

صغار الناس هؤلاء ! إنهم الممثلون الهزليون على خشبة مسرح العالم الكبير. إنهم يوفرون لنا البسمة فى دراما الحياة الثقيلة. كل منهم يمثل معارضة صغيرة – إن تكن مصممة – لنظام الأشياء فى العالم . كل منهم يفعل دائماً الشئ الخطأ فى الوقت الخطأ فى المكان الخطأ بالطريقة الخطأ. إن الممرضة التى أرسلت جينى كى ترى ماذا يفعل تومى وتوتى وتقول لهما – دون أن ترى شيئاً – أن يكفا عما يفعلانه، هذه الممرضة تفهم طبيعة الطفل. أعط الطفل فرصته العادلة، فإذا لم ينتج عنها إلا ما تتوقعه، فعليك باستدعاء الطبيب على الفور!.

لديهم نزعة لأن يقوموا بأسخف الأعمال. وهم يؤدونها بطريقة وقورة رزينة لا تقاوم . إن المظهر العملى الذى يضم به طفلان يديهما ثم يتجهان شرقاً فى خطوة قصيرة لاهية متجاهلين أختهما الكبيرة التى تصرخ كى يتبعاها إلى اتجاه الغرب، لهو مظهر مثير لضحك الجميع،

ربما باستثناء الأخت الكبيرة، تجدهم يدورون حول الجندى يبحلقون فى رجليه بفضول بالغ، ثم ينخسونه ليتأكدوا من أنه شخص حقيقى. هم يؤكدون فى عناد - معارضين كل الحجج، وعلى غير هوى الشاب الضحية - أن ذلك الشاب الخجول فى آخر الأتوبيس هو «بابا» هم يجدون فى ناصية الشارع المزدحم المكان الأمثل لمناقشة المسائل العائلية بصوت عالى الطبقة. وإذا ما وجدوا أنفسهم وسط تقاطع للطرق، تملكتهم فجأة رغبة جارفة فى الرقص. أما مدخل المحل المزدحم فهو المكان المفضل الذى يختارونه للجلوس وخلع الأحذية!

فإذا ما كانوا بالبيت استعانوا بأكبر عصا بالمنزل، أو بالمظلة - ويا حبذا لو كانت مفتوحة - فى الصعود إلى الدور العلوى. ثم يكتشفون أنهم يحبون مارى آن، بالضبط فى اللحظة التى تبدأ فيها الخادمة فى تنظيف الموقد، وليس ثمة ما يبرد عواطفهم إلا معانقتها فوراً وحيث تقف. أما بالنسبة للأكل فإن أحب الأطباق لديهم هو الكوكاكولا واللحم الخاص بالقطة. وهم يرضعون الهريرة بالمقلوب ويعبرون عن مشاعرهم نحو الكلب بشد ذيله.

يثيرون الكثير من المشاكل، ويجعلون المكان قذراً، واقتناؤهم يتطلب مالاً كثيراً. لكنك لا تستطيع أن تتحمل بعدهم عن البيت. فالبيت لا يصبح بيتاً إلا بألسنتهم المفعمة بالضجيج وأيديهم صانعة الأذى. ألا تبدو الغرف فارغة إذ خلت من أقدامهم المتحركة؟ ألا تضل أنت إذا لم تناديك أصواتهم الثرثارة؟

هكذا لا بد أن يكون الأمر. ورغم ذلك فإننى أحياناً أتخيل اليد الصغيرة هذه إسفيناً يُفرق . إنها لمهمة قاسية أن تنتقد أنقى الانفعالات البشرية: حب الأم - اللمسة التى بها تكتمل حياة المرأة. إنه حب مقدس، يصعب علينا أن نفهمه نحن الرجال بألياف‌نا الخشنة. أرجو إذن ألا أعتبر منتقداً إذا قلت : إنه لا يلزم أن تبتلع هذه العاطفة كل ما عداها من عواطف. لا يلزم يا سيدتى أن يستولى الطفل على قلبك بأكمله، فتصبحين كمثل الثرى الذى أقام حائطاً حول بئره فى الصحراء. أليس ثمة مسافر ظامئ يقف قريباً؟ لا تشغلنك رغبتك فى أن تكونى أما طيبة، فتنسين أن تكونى زوجة طيبة. لا داعى أن ينصرف كل فكرك ورعايتك إلى شخص واحد. لا تجيبى إدوين عندما يطلب أن تخرجى معه : «ماذا ؟ ونترك الطفل وحده؟» لا تقض يومك كله مع الطفل، ولا يقتصرن حديثك بأكمله على السعال الديكى والحصبة. يا سيدتى العزيزة، طفلك لن يموت إذا ما سعل مرة، ومنزلك لن يحترق ولن تهرب خادمتك مع العسكرى فى كل مرة تخرجين فيها. لا وليس من الضرورى أن يجلس القط فوق صدر طفلك المسكين فى اللحظة التى تتركينه فيها. إنك تشغلين نفسك كثيراً بهذا الكتكوت الأوحد، وتنقلين قلقك للجميع . حاولى التفكير فى الواجبات الأخرى، ولن يتغضن وجهك الجميل وتملؤه التجاعيد، وستعم البهجة غرفة الإستقبال ودار الحضانة فكرى قليلا فى طفلك الكبير . لاطفيه قليلا وامدحيه، واضحكى معه واسخرى منه. إن الطفل الأول وحده هو الذى يأخذ من المرأة كل وقتها،

لخمسة أطفال أو ستة لا يحتاجون ما يحتاجه ذاك الطفل، لكن قبل أن يحل هذا العدد يكون الأذى قد وقع ! يا سيدتى ، يلزم أن يجد زوجك لنفسه فى البيت موقعاً، يلزم ألا تنهمكى فى مشاغلك فتنسين زوجك، وإلا ضاع زوجك هذا اللامعقول! وتعلم أن يبحث فى مكان آخر عن الراحة والصحبة. كفى كفى كفى .. ! سأضفى على نفسى صفة كاره الطفل إذا مضيت أكتب فى هذا الموضوع . يعلم الله أننى لست كذلك. ومن يستطيع أن يكون كذلك إذا رأى هذه الأوجه البريئة تتجمع فى عجز خائف حول المدخل الواسع الذى يفتح على عالمنا هذا؟

العالم! العالم الصغير الكروى ! ياله من مكان هائل فسيح تكتنفه الاسرار فى عين الطفل! يالها من قارة مهجورة تلك الحديقة خلف المنزل! يا لها من استكشافات رائعة تلك التى يُجريها الطفل فى القبو تحت السلم! يا للذعر الذى يتملكهم وهم ينظرون إلى الشارع الطويل – مثلما ننظر نحن الأطفال الكبار إلى النجوم – ويتعجبون ... إلى أين ينتهى هذا كله؟!..

وهناك فى أطول الشوارع – شارع الحياة الطويل المعتم الذى يمتد أمامهم – أى نظرات قاتمة عتيقة تبدو فى عيونهم ! أى نظرات مذعورة مليئة بالأسى ! مررت مرة بطفلة صغيرة تجلس على عتبة باب فى حى السوهو الفقير. لن أنسى عمرى تلك النظرة التى رأيتها على وجهها الذابل فى ضوء مصباح الغاز – نظرة هى نظرة شخص عادت إليه كما الشبح أطياف حياة مرة مضت، فقتلت قلبه رعباً !

يا للأقدام الصغيرة المسكينة تبدأ الرحلة المروعة! ونحن المسافرون القدامى، قطعنا شوطاً فى الطريق .. لكن، ماذا نستطيع أن نقدمه سوى أن نلوح لكم بأيدينا ! تخرجون أنتم من السديم المعتم، فإذا نظرنا خلفنا رأيناكم بعيداً صغاراً تقفون على سفح التل وأذرعكم تمتد نحونا. ساعدكم الله ! لكم نحب لو توقفنا وأخذنا أيديكم الصغيرة فى أيدينا. لكن آذاننا تمتلئ بهمهمة البحر العظيم، فكيف لنا أن نتلكأ؟! لا بد أن نسرع ، فالبواخر الغامضة تنتظر كى تنشر أشرعتها السوداء !

***

(١١)
عن الطعام والشراب

كنت طول عمرى مغرماً بالطعام والشراب ، حتى فى أيام طفولتى، وبالطعام بالذات فى تلك الأيام البعيدة . كانت شهيتى دائماً مفتوحة ، وكان هضمى ممتازاً . أذكر أن زارنا فى المنزل يوماً رجل فاتر العينين شاحب البشرة ، وعلى العشاء ظل يرقبنى - مفتوناً - وأنا ألتهم طعامى، فترة امتدت نحو خمس دقائق . ثم التفت إلى والدى وسأله : «هل أصيب ابنك هذا يوماً بعسر الهضم؟».

أجاب والدى : «لم أسمعه أبداً يشتكى . هل اشتكيت يوماً من عسر الهضم ياسخام الطين؟» (كانوا يطلقون علىّ اسم سخام الطين ، ولكن هذا ليس اسمى الحقيقي).

أجبت : «كلا ياوالدى» ، ثم أضفت : «وما هو عسر الهضم يابابا؟».

رمقنى الصديق ذو البشرة الشاحبة بنظرة يملؤها الذهول والحسد ، ثم قال فى نبرة يملؤها الأسف : «ستعرفه يوماً ما!».

كانت والدتى المسكينة تقول دائماً إنها تحب أن ترانى وأنا أتناول الطعام . وهذا أمر يجعلنى دائماً راضياً عن نفسى إذ أتذكر قدر ما

قدمته لها من سعادة فى هذه الناحية . فالطفل ذو الصحة الجيدة الذى يمارس قدراً وافراً من الرياضة والذى يحرص على ألا يجهد نفسه كثيراً فى المذاكرة ، قمين دائماً أن يبلغ أعلى المستويات بالنسبة لقواه التغذوية!

من المسلى حقاً أن تراقب الصبية وهم يأكلون - إذا لم يكن عليك أن تدفع الحساب . إن الوجبة الصحيحة عندهم تتكون من رطل ونصف من اللحم المشوى ، وخمس أو ست حبات من البطاطس المعقولة الحجم (ويا حبذا لو كانت من الصنف الزلق لأنه أكبر حجماً) ، والكثير من الخضراوات، وأربع شرائح سميكة من البودنج ، يعقبها بعض الزلابية ، وبضع تفاحات ، والقليل من المكسرات ، وقطعة كعك مسكرة وزجاجة بيرة. بعدها ينهمكون فى لهوهم !

لاشك أنهم يزدروننا نحن الرجال ، الذين يلزمهم أن يجلسوا فى سكون بضع ساعات عقب وجبة لاتزيد على ملعقة من الحساء الرائق وجناح كتكوت!

لكنهم لايجمعون كل الحسنات . إن الصبى لايتمتع أبداً بترف إحساس اسمه الرضا. الصبى لايشبع أبداً ، إنه لايستطيع أن يمد رجليه ، ويضع يديه خلف رأسه ، ثم يغلق عينيه ويمضى إلى النعيم الأثيرى ، كما يفعل الرجل بعد وجبة غذاء شهية. مثل هذه الوجبة لاتعنى شيئاً البتة بالنسبة للصبى . أما بالنسبة للرجل فإنها نعمة سماوية ، يبدو العالم بعدها مكاناً أفضل وأكثر ألقاً. إذا ما تناول الرجل غذاءه امتلأ قلبه بحب كبير لكل البشر ، وأخذ يربت على ظهر قطته فى

حنان مناديا إياها «ياعزيزتى» بنغمة كلها عواطف رقيقة، ثم تجده متعاطفاً مع أفراد الفرقة الموسيقية الألمانية الواقفين فى الهواء الطلق، ويخشى عليهم من البرد . بل إنه - فى غمرة سعادته - قد لا يكره ولا حتى أقارب زوجته .

تكشف وجبة الطعام الطيبة عن أفضل صفات الرجل الرقيقة . يصبح كل كئيب عابس بعدها بهيجاً مرحاً ! المتجهمون الجامدون - الذين يقضون اليوم بطوله كما لوكانوا يعيشون على الخل والملح الإنجليزى - تنفرج أساريرهم بعد الأكل وتملأ وجوههم البسمات النضرة ، ثم يبدون ميلا لأن يربتون على رءوس الأطفال الصغار ، ويتطرقون معهم - فى غموض - إلى حديث القروش . ويتخلى الشباب الوقورون عن تحفظهم وتسرى بهم البهجة ، أما الشباب المتكبرون من ذوى الشوارب الثقيلة ، فينسون أن يجعلوا من أنفسهم حمقى كريهى الصحبة.

أصبح أنا نفسى بعد الطعام شخصاً عاطفياً . فهذا هو الوقت الذى فيه استطيع أن أقدر قصص الحب حق قدرها . فإذا ما أمسك البطل حبيبته وضمها إلى صدره فى عناق أخير محموم ، وكتم تنهيدة ، شعرت بحزن لا يوصف ، وإذا ماتت البطلة فى النهاية بكيت . لكننى إذا قرأت القصة فى الصباح سخرت منها! إن للهضم - أو بالأحرى لسوء الهضم - أثراً هائلاً على القلب . فإذا أردت أن أكتب شيئاً مشجياً للغاية - أعنى اذا أردت أن أحاول أن أكتب شيئا شجيا للعناية - فإننى أتعاطى قبل الكتابة بساعة طبقاً كبيراً من الفطائر الساخنة ،

فما أن يحل وقت جلوسى للعمل حتى ينتابنى شعور طاغ بالانقباض ، فأتصور العشاق وقد ملأت الحسرة قلوبهم فى لحظات الوداع الأخيرة على الطريق الموحش ، والشفق الكئيب من حولهم يزداد قتامة ، فلا يسمع غير صوت شاة يأتى من بعيد يكسر الصمت المثقل بالأسى . يجلس الرجال المسنون يحدقون فى الأزهار الذابلة حتى أن تغشى أعينهم غشاوة من الدمع ، فلا يرون . والعذارى الصغيرات الرقيقات ينتظرن ينظرن من النافذة المفتوحة ، لكن الحبيب لايعود ، وتكر السنون ثقيلة، وتتحول الضفائر الذهبية اللامعة فتصبح بيضاء، والأطفال الذين دللتهم، كبروا وأصبحوا رجالا ونساء تشغلهم عذاباتهم الخاصة! رفاق الصبا، رفاق الضحك والبهجة، ينامون فى صمت عميق تحت الأعشاب المتموجة، لكن المسنون ينظرون يرقبون لايزالون، حتى تتسلل الظلال القاتمة لليل المجهول وتحتشد من حولهم، فتخبوا !!! آلامهم الصغيرة من أعينهم الكليلة.

أرى جثثا شاحبة تتقاذفها الأمواج المزبدة ، وأسرة موت تلطخها دموع مرة، وقبوراً فى صحارى ماخطت فيها قدم . أسمع النواح المستسلم للنساء، والأنين الخافت للأطفال الصغار ، والنشيج المتحفظ للرجال الأقوياء! إننى لا أستطيع أن أستحضر منظراً كئيباً واحداً بوجبة من لحم الضأن وكوب شمبانيا!

المعدة الممتلئة تساعد الشّعر كثيراً ، والحق أنه ليس ثمة عواطف يمكنها أن تنهض على معدة فارغة . لا وقت لدينا ولا استعداد للانغماس فى المشاكل الوهمية إلا بعد أن نتخلص من مشاكلنا

الحقيقية. إننا لا نتنهد حزناً على طائر مات إذا كان فى البيت من يقوم بالحجز على محتوياته . وإذا لم تكن تعرف كيف - بحق السماء - ستكسب قرش يومك ، فلن يشغلك على الإطلاق إذا كانت بسمة الحبيبة باردة أم ساخنة أم فاترة أم لها غير ذلك من درجات الحرارة.

الحمقى من الرجال .. قبل أن استطرد .. عندما أقول : «الحمقى من الرجال» بهذه الطريقة الممتلئة بالازدراء فإننى أعنى كل من يضمر آراء تختلف عن آرائى . فإذا كان ثمة من أحتقره أكثر من غيره فى هذا العالم ، فهو ذلك الرجل الذى لا يفكر مثلى تماماً فى كل القضايا .. أقول : الحمقى من الرجال سيخبرونك أن الألم الذهنى أقسى بكثير من الألم الجسدى ، وهم لم يخبروا هذا ولا ذاك . يالها من نظرة رومانسية مؤثرة ! نظرة تريح كل شاب مريض بالحب ينظر من عل إلى بعض المساكين ذوى الأوجه الشاحبة المريضة ثم يقول لنفسه : «آه! كيف لي أن أكون سعيداً مثلهم!» ، نظرة تهدىء كل سمين عجوز يثرثر عن أفضلية الفقر على الغنى . لكن هذا كله مجرد لغو، رياء ونفاق . إن الصداع فى رأسك ينسيك الألم فى قلبك ، والجرح فى أصبعك يطرد كل ذكريات الكرسى الفارغ . وعندما يحس الرجل بالجوع حقاً ، فإنه لايشعر بشىء سواه!

ونحن ذوو الأناقة والطعام الدسم لا نكاد نعرف ماذا يعنى الشعور بالجوع . إننا نعرف معنى فقدان الشهية عندما نترك مايقدم لنا من شهى الطعام ، لكننا لا نفهم مايعنى أن تموت جوعاً ، أن تتحرق شوقاً

لرغيف تأكله بينما الآخرون يلقونه فى القمامة ، أن تنظر بعين جائعة إلى الطعام يتصاعد منه البخار من خلف نافذة بينما تشتاق أنت لحفنة من البسلة لاتستطيع شراءها ، ماذا يعنى أن تداعب خيالك كسرة خبز جافة ، وأن تعتبر قطعة العظم وليمة!

الجوع ترف بالنسبة لنا . الجوع حساء متبل حريف عندنا . إن الأمر يستحق أن نجوع وأن نعطش لمجرد أن نكتشف مانصيب من بهجة فى الأكل والشرب . إذا أردت أن تستمتع تماماً بوجبة غذائك، فعليك برحلة على الأقدام بعد الإفطار طولها ثلاثون ميلا ، وإياك أن تلمس شيئاً حتى ترجع . لاحظ عندئذ كيف ستلمع عيناك عند رؤية مفرش المائدة والأطباق ينبعث منها البخار ! يالها من تنهيدة سعيدة ستطلقها وأنت تعيد كوب البيرة فارغاً، ثم تلتقط سكينك وشوكتك! ياللراحة التى ستحس بها بعد الوجبة عندما تدفع بكرسيك إلى الخلف ، وتشعل السيجار ، ثم تبتسم فى بهجة إلى كل من هم حولك!

على أنه يلزم أن تتأكد - إذا تبعت هذه النصيحة - من أن ثمة وجبة فاخرة ستكون فى انتظارك ، وإلا فياهول الإحباط الذى سيصيبك!.. أذكر واقعة حدثت لى مرة مع أحد الأصدقاء .. كان عزيزى جو ، آه ! كيف نفقد بعضنا فى ضباب الحياة ! أعتقد أننى لم أر صديقى هذا منذ ثمان سنوات . لكم يسعدنى أن أرى وجهه الضحوك مرة أخرى، وأن آخذ يده القوية فى يدى ، وأن أسمع ضحكته العذبة ثانية! ثم إنه مدين لى بأربعة عشر شلناً . حسناً ، كنا فى أجازة معاً ،

تناولنا إفطارنا مبكراً ذات صباح ، وبدأنا رحلة طويلة للغاية على الأقدام . كنا قد طلبنا فى الليلة السابقة بطة لوجبة الغداء . قلنا : «هاتى لنا بطة ضخمة سمينة لأننا سنرجع ونحن فى غاية الجوع!». حضرت صاحبة الفندق قبل خروجنا مبتهجة جذلانة وقالت : «ياسادة ، لقد ابتعت لكما هذه البطة ، فما رأيكما ؟» . كانت تحمل فى يدها بطة فى حجم ممسحة الأرجل الموجودة أمام الباب ، ملأنا منظرها حبوراً ، وقلنا فلنجرب . قلنا هذا فى تيه خجول ، شأن كل من يعرف قدراته الهضمية. ثم انطلقنا إلى رحلتنا .

تهت أنا وصديقى ، بالطبع ، هذا ما يحدث معى دائماً فى الريف . لايفيدك هناك أن تسأل من تقابلهم عن الطريق . إن سؤال ريفى عن الطريق إلى القرية المجاورة لايشبه إلا سؤالك خادمة فى نزل عن كيفية ترتيب السرير! عليك أن تصيح بسؤالك ثلاث مرات قبل أن ينفذ صوتك إلى جمجمته .

وفى المرة الثالثة تجده يرفع رأسه فى بطء ثم يحدق فيك دون ما تعبير على وجهه . هنا تصرخ بسؤالك للمرة الرابعة ، فيكرر السؤال خلفك . ثم يتفكر مليا فترة تكفى أن تعد فيها من واحد إلى ٤٠٠ ، ثم يتحدث بعد ذلك بمعدل يبلغ ثلاث كلمات فى الدقيقة قائلا : «إن أفضل سكة .....» . هنا يقع نظره على معتوه آخر على الطريق فيزعق شارحا له الملابسات ، وسائلا إياه النصيحة . يقوم الريفيان عقب ذلك بمناقشة مستفيضة تمتد ربع ساعة أو نحو ذلك ، ثم يتفقان فى النهاية على أن الأفضل هو أن تمضى فى هذا الزقاق ثم تنعطف ناحية اليمين ، وتعبر

الطريق عند المرقى الثالث ، ثم تلزم يسارك عند زريبة جيمى ميلشر العجوز ، ومن هناك تعبر حقل السبع أفدنة وتمضى خلال البوابة عند كومة التبن الخاصة بالسيد جروبين ، فتلازم طريق الخيول لفترة إلى أن تصل التل عند موقع طاحونة الهواء القديمة - لقد أزيلت الآن - فتدور إلى اليمين وتسير بحيث تكون مزرعة ستيجين خلفك . هنا تقول له «شكرا جزيلا» ، وتمضى وقد أصابك صداع قاتل ، دون أدنى فكرة عن الطريق سوى أن هناك فى مكان ما بوابة عليك أن تعبرها . وفى المنعطف التالى ستواجه بأربع بوابات كل يتجه اتجاها مختلفا .

تكررت هذه المحنة مرتين أو ثلاثا . وطئنا حقولا . خضنا جداول . تسلقنا أسوارا وحوائط . تشاجرنا عندما أردنا أن نعرف من كان السبب أصلا فى أن نتوه . ساءت طباعنا . تقرحت أقدامنا . هلكنا ! .. لكن خيال البطة كان يراودنا طول الوقت ويحول بيننا وبين السقوط . كانت كطيف خيال ملائكى تطفو أمام أعيننا المتعبة ، فتدفعنا لكى نتقدم. كان التفكير فيها نفيرا ينادينا أن لا نتردد أو نخور . تحدثنا عنها وأخذ كل منا يحكى للاخر ذكرياته عنها . قلنا «إلى الأمام ، إلى الأمام ، وإلا فسدت البطة !» .

شعرنا بدافع قوى - فى إحدى المراحل - أن ندخل خانا فى قرية كنا نمر عليها لنأكل كسرة خبز وقطعة جبن . لكنا كبحنا إغراء الفكرة .. لابد أن نتمتع بالبطة كما يجب ، ولن يكون ذلك إلا بالجوع .

خيل إلينا أننا نشم رائحتها عندما وصلنا البلدة ، فقطعنا الميل الأخير فى دقائق ثلاث . اندفعنا إلى الفندق ، وأخذ كل منا بسرعة حماما ، واستبدلنا ملابسنا ، ونزلنا إلى حجرة الطعام ، وجذب كل كرسيه نحو المائدة ، وجلسنا ، وفركنا أيدينا ، بينما صاحبة الفندق تكشف الغطاء عن البطة . أمسكت بالسكين والشوكة وابتدأت فى التعامل معها .. مع البطة ! .

بدا أن الأمر يحتاج الكثير من النحت بالسكين . تصارعت معها نحو خمس دقائق ، فلم أنجح فى أن أثير بها أدنى انطباع . كان جو آنئذ يتعامل مع البطاطس وأراد أن يعرف ما إذا كان من الأفضل أن نستدعى شخصا متخصصا فى تقطيع البط . تجاهلت تعليقه الأحمق وهجمت على الطائر مرة ثانية ، إنما فى حماس رهيب ، فترك الطائر الطبق ، والتجأ إلى سياج المدفأة .

على أننا قمنا بإخراجه من المدفأة ، وبدأت فى الاستعداد للهجوم التالى . لكن جو كان قد فرغ صبره وساء خلقه ، فقال إنه لو تصور للحظة أننا سنلعب الهوكى مع وجبة غذائنا ، إذن لتعاطى الخبز والجبن بالخارج .

كنت منهكا فلم أستطع الجدل . ألقيت بالسكين والشوكة بكل وقار وجلست جانبا ، ليبدأ جو هجومه على الطائر التعيس . واصل عمله فى صمت لفترة ، ثم تمتم قائلا : «لعنة الله عليك من بطة !» ، وخلع معطفه .

حطمنا البطة فى النهاية بمساعدة أزميل ، لكن أكلها كان مستحيلا. كان علينا أن نكتفى فى الغذاء بالخضراوات وتورتة التفاح . حاولنا قضمة من البطة ، لكنها كانت كالمطاط !

كانت حقا جريمة بشعة أن تقتل هذه البطة العجوز . لكن - قل لى - من يحترم المؤسسات العتيقة بهذا البلد ؟!

بدأت هذا المقال بفكرة أن أكتب عن الطعام والشراب ، لكن يبدو أنني قد اقتصرت فى تعليقاتى جميعا - حتى الآن - على الطعام . حسنا ، أنت تعرف أن الشرب هو أحد الموضوعات التى لا يستحسن أن يعرف الناس أنك ملم بها جيدا . مضى زمان كانت فيه الرجولة هى أن تنام كل ليلة مخمورا ، زمان كانت فيه الرأس الصافية واليد الثاقبة تضفى الخنوثة على صاحبها . على العكس ، ففى هذه الأيام المنحطة أصبحت الأنفاس المخمورة ، والوجه المبقع ، والمشية المترنحة ، والصوت الأجش ، أصبحت جميعا من سمات الوغد لا الجنتلمان .

وحتى فى زماننا هذا سنجد أن عطش البشر أمر غير طبيعى . إننا نشرب طول الوقت لسبب أو لآخر . إن الرجل لا يشعر بالراحة إلا وأمامه الكوب . فنحن نشرب قبل الأكل ، وأثناء الأكل ، وبعد الأكل . ونحن نشرب إذا قابلنا صديقا ، ونشرب إذا ودعنا صديقا . نحن نشرب ونحن نتكلم ، ونشرب ونحن نقرأ ، ونشرب ونحن نفكر . نحن نشرب فى صحة الآخرين ، ونفسد صحتنا . نحن نشرب مشروبات الملكة والجيش والسيدات ، وكل من هو قابل للشرب . وأعتقد أنه إذا نفد الشراب فسنشرب فى صحة حمواتنا .

وعلى الذكر ، نحن لا نأكل فى صحة أحد ، وإنما نشرب فى صحته. لماذا لا نقف ما بين الحين والحين لنأكل تورتة فى نخب نجاح أحدهم .

اعترف بعجزى تماما عن تفهم السبب فى حاجة الإنسان المستديمة إلى الشرب . أفهم جيدا أن يشرب الناس لإغراق الهموم ، أو لطرد الأفكار المزعجة . أفهم أن يحب الجهلة الغرق فى الشرب ، وهو أمر لاشك مفزع ، مفزع لنا نحن الجالسين فى منازلنا الدافئة ومن حولنا نِعَم الحياة ومباهجها . أفهم أن يزحف سكان القباء الرطبة والسطوح الباردة ، أن يزحفوا من أوكار بؤسهم إلى دفء وبهرجة الحانات العمومية ، يلتمسون برهة يسبحون فيها بعيدا عن عالمهم الكئيب فوق أمواج الخمر فى نهر النسيان !

لكن ، قبل أن ترفع يديك مستنكرا ، فكر فى حياتهم القاسية ، بالله ماذا تعنى «الحياة» حقا لمثل هذه المخلوقات التعسة . تذكّر بؤسهم الرهيب فى وجودهم الفظ ، يمضون أيامهم عاما وراء عام فى حجرة ضيقة كريهة الرائحة ، حيث يحشدون كالهوام فى البالوعات ، يتمرغون ويمرضون وينامون ، حيث الأطفال تغمرهم القذارة يتصايحون ويتصارعون ، حيث النساء الفاسقات بأصواتهن الحادة يسعلن ويشتمن ويتذمرن ، حيث الشارع أمامهم يعج بالقذارة وحيث المنزل القريب يمتلئ هرجا ومرجا ونتانة !

تفكر ! ماذا تعنى زهرة الحياة الحلوة - بالنسبة لهم - غير عود جاف ؟ هم بلا عقل ولا روح ! الحصان فى الإسطبل يشم رائحة

الدريس الحلوة ، ويمضغ الأذرة فى رضا وسعادة . الكلب بعين نصف مفتوحة ينظر إلى الشمس الحبيبة ، ويحلم بمطاردة رائعة فوق الحقول الندية، ويصحو ينبح سعيدا يحيّى يدا تربت على ظهره . لكن الحياة التى يحياها هؤلاء البشر لا تعرف أبدا شعاعا واحدا من الضوء . من وقت أن يزحفوا خارجين من سريرهم غير المريح إلى ساعة يعودون ليرقدوا فيه ثانية . ليس ثمة لحظة واحدة من الحياة الحقة . لا يعرفون معنى الاستجمام ، اللهو ، الصحبة ، الحبور ، الألم ، الضحك ، الدموع ، الحب ، الصداقة ، الشوق ، اليأس ، كل هذه عندهم كلمات بلا معنى . من يوم أن تتفتح أعينهم الطفلة لتلقى أول نظرة على الحياة الجهمة ، إلى اليوم التى تقفل فيها إلى الأبد وتلقى عظامهم بعيدا ، لا تدفئ قلوبهم مرة لمسة حنان آدمية . لا يهتزون طربا لفكرة ، لا يشتعل فيهم أبدا أمل واحد . بحق السماء دعوهم يعبون من الشراب المجنون ، دعوهم يعيشون ولو لحظة !

آه ! قد نتحدث عن العاطفة طويلا طويلا ، لكن المعدة هى بيت السعادة فى هذا العالم .. المطبخ هو المعبد الرئيسى الذى فيه نتعبد . النار فيه هى شعلة التبتل . الطاهى هو كاهننا الأكبر ، هو الساحر العظيم ، هو الرءوف . إنه يمسح كل الأحزان وكل الهموم ، هو يطرد كل خصومه ، ويجمل كل حب . دعنا نشرب . دعنا نهزح .

***

(١٢)
عن الشقق المفروشة

- لو سمحت ، ألديكم شقة للإيجار؟
- أماه !
- ماذا تريد؟
- هنا رجل يسأل عن الشقة.
- دعه يدخل ، سأحضر فى دقيقة .
- تفضل ياسيدى ، ستحضر «أماه» فى دقيقة .

هنا تدخل البيت ، وبعد دقيقة تصل «أماه» - فى بطء - من سلم المطبخ وهى تفك «المريلة» ، وتوجه تعليماتها لشخص ما فى المطبخ بشأن البطاطس.

«صباح الخير ياسيدى» تقولها فى بسمة باهتة، «تفضل ، من هذا الطريق لو سمحت».

تقول أنت : «إن الأمر لايستحق صعودى إلى أعلى ، فقط أريد أن أعرف شيئاً عن الشقة وإيجارها».

ترد «أماه» : «حسناً ، تفضل معى ياسيدى إلى أعلى ، وسأريك إياها».

تمضى خلفها بعد همهمة اعتراض ، تعنى بها أنك تخلى مسئوليتك عن أية شكوى لها تدعى فيها أنك أضعت وقتها.

ما أن تضع قدمك على أول «بسطة» فى السلم حتى تصطدم بجردل ومقشة . إذ ذاك تطنب «أماه» فى توضيح خطأ الاعتماد على الخادمات، ثم تصرخ وهى ترتكز على الدرابزين تطلب من سارة أن تنقل الجردل والمقشة. وعندما تصل إلى الشقة ، تجدها تتمهل ويدها على أكرة الباب لتعتذر بأن الشقة ليست مرتبة الآن كما يجب ، لأن الساكن الأخير لم يتركها إلا الأمس فقط ، ثم تضيف أن هذا هو يوم التنظيف ، ودائماً ما يكون هذا . بهذه المقدمة تدخل الشقة معها لتقفا سوياً فى وقار تتمتعان بالمشهد . الشقة لاتبدو جذابة على الإطلاق . حتى وجه «أماه» نفسه لايفصح عن أدنى إعجاب . والحق أن الشقق المفروشة المعروضة للإيجار لاتثير فيك إحساساً بالبهجة إذا أنت عاينتها فى ضوء الصباح. ثمة هواء ميت بلا حياة يكتنفها . لكن الأمر يختلف تماماً عندما تستقر وتسكن بها وتملؤها بمقدساتك المنزلية وكراكيبك الصغيرة التافهة التى ترحب بنظرات عينيك كلما لمحتها - بصور كل البنات اللائى أحببتهن وهجرنك تصطف فوق الرف - بنصف دستة من الغلايين القديمة المشينة مبعثرة فى مواقع فاضحة - بفردة الشبشب تطل من تحت صندوق الفحم وبالأخرى تجثم فوق البيانو - باللوحات العالمية الشهيرة تخفى وراءها الحوائط القذرة - بأصدقائك الأعزاء القدامى ، كتبك ، وقد اختلط حابلها بنابلها فى كل مكان - بالصينى القديم التى كانت

أمك تقدره ، بقطعة الكانافاة التى نسجتها فى تلك الأيام الخوالى عندما كان وجهها الحلو ضحوكاً ناضراً ، وخصلة شعرها الذهبى المسفوع تبرز من تحت قفة الفحم.

أية ياقطعة الكانافاة القديمة ! أية شخصية رائعة كانت لك فى أيام شبابك، عندما كانت الورود والخزامى والزنابق (وكلها تخرج من ساق واحدة) ناضرة يلمع بريقها! كم صيف جاء ومضى وكم شتاء حل وانقضى وأنت ترقبين ضوء المدفأة الراقص ، حتى أن غدوت حزينة كئيبة . ها ألوانك الزاهية قد غدت باهتة ، والحشرات قرضت خيوطك الحريرية ! ها أنت ذا تذوين مثلما نوت وماتت اليد التى غزلتك . أفهل تذكرينها؟ هاتبدين الآن حزينة حتى لأتصور حقاً أنك لازلت تذكرين! تعالى ، أنت وأنا وهذه الجمرات المتوهجة فى المدفأة . تعالى نتحدث سوياً . قولى - بصمتك البليغ - ماذا تذكرين عن تلك الأيام العذبة ، عندما كنت ترقدين فوق حجر أمى، وأصابعها الصغيرة الصبية تغزل ضفائرك الملونة؟ ثم أو مازلت تذكرين رجلا ، رجلا كان يأتى إليكما بين الحين والآخر ، ويمسك بواحدة من اليدين ويغمرها قبلاً ، ثم يصر على أن يبقيها معه ، فيعطلها عن أن تغزلك ؟! ألم يكن وجودك الرهيف يعرض أحياناً للخطر عندما كان هذا الرجل الأخرق العنيد نفسه يلقيك جانباً بلا احترام ، ليحتضن اليدين كلتيهما - فواحدة لاتكفى - ثم يحدق فى عينى أمى الجميلتين ؟ يعود هذا الرجل إلى ذهنى الآن من خلال غبش الشفق الخافق ، شاباً متحمساً مرح العينين ، بحذائه الأنيق الضيق ، وبنطلونه المحزق ، وقميصه الأبيض الناصع المبتذل ، و ....

آه.. وشعره الجعد. ياله من شاب متهور جذل ! أمن الممكن أن يكون هذا هو الرجل العظيم الحزين ، الذى كنت أجلس على ركبتيه ، ذلك الرجل الذى أجهدته الحياة ، والذى تعودت أن أنظر إلى وجهه الوسيم بتوقير طفولى ، والذى كنت أناديه «أبى» ؟ أتقولين «نعم» ياقطعة الكانافاة؟ أمتأكدة أنت ؟ إن ماتقولينه خطير . أمن الممكن أن يكون صحيحاً ؟ أكان عليه أن يركع فى ذلك البنطلون الرائع ويلتقطك ويعيد تسويتك قبل أن يغفر له ، وتمر يدها النحيلة تسوى شعره؟ آه ياقطعة الكانافاة العتيقة، قولى : هل كانت البنات والصبية منذ خمسين عاماً يمارسون لعبة الحب كما يمارسونها الآن؟ هل النساء والرجال لا يتغيرون؟ هل تخفق قلوب العذارى تحت الصدار الموشى باللؤلؤ كما كانت تخفق تحت العباءات؟ . ألم يكن ثمة أثر للخوذة الحديدية أو للقبعة على الأذهان التى تعمل تحتها؟ آه ! أنت ياأيها الزمن ! أتلك قوتك؟ أأنت الذى جففت البحار وسويت الجبال ، وتركت أوتار قلب الإنسان الرهيفة لتتحداك؟ آه، نعم نعم ! لقد غزلتْها يد أقوى منك ، وهى تمتد لتتعدى حدودك الضيقة، فنهاياتها هناك فى الأبدية ! نعم لقد تسقط أنت الأوراق والأزهار ، لكن جذور الحياة تكمن عميقاً ، أبْعد من أن يجتثها منجلك! أنت تغير رداء الطبيعة ، لكنك لاتستطيع أن تحور مثقال ذرة خفقة من خفقات نبضها . العالم فى طريقه يطيع قوانينك ، لكن قلب الإنسان لايقع فى مملكتك . فاليوم فى مسقط رأسه يساوى ألف عام!

أخشى أن أكون قد شردت بعيداً عن موضوع «الشقق المفروشة» . والحق أننى لا أعرف كيف أعود إليه ! لكن لدى عذرى عن هذا التسكع .

ثمة قطعة من الأثاث القديم قد أخذتني بعيداً حتى ضللت سبيلي . والصور الذهنية عادة ماتتجمع - بشكل ما - حول الأثاث القديم ، كما الطحالب حول الأحجار القديمة . كراسيك ومنضدتك تكاد تصبح جزءاً من حياتك، وتكاد تبدو كالأصدقاء . آه لو تكلمت ! إذن لسمعت منها قصصاً عجيبة! كم من ملهاة ومأساة اشتركت فيها ! كم من دموع مرة بذلت على الوسادة ، هناك فوق الأريكة ! كم من همسات تملؤها العواطف قد سمعها ذلك المقعد!

الأثاث الجديد لا يسحرني ، مقارنة بالقديم . إنما نحب الأشياء القديمة.. الأوجه القديمة ، الكتب القديمة ، النكات القديمة . الأثاث الجديد قد يصنع قصراً ، لكن الأثاث القديم هو مايصنع بيتاً . ليس القديم في حد ذاته - فأثاث الشقة المفروشة قديم - إنما القديم بالنسبة لنا، القديم ذو الارتباطات والذكريات . أثاث الشقة المفروشة - مهما كان عمره - أثاث جديد في أعيننا . نحس بأننا أبداً لم نعتاده، مثله مثل كل معارفك الجدد - خشبية أو بشرية - (الفروق كثيراً ما تكون ضئيلة جداً بين هذين النوعين) لا ترى فيهم إلا أسوأ النواحي . أشغال الخشب المزخرفة وشعر الحصان اللامع الذي يغطي الكرسي ، قد تثير فيك كل شيء إلا الراحة . المرآة قاتمة بلون الدخان. الستائر تحتاج أن تغسل . السجادة خيوطها منسلة . المنضدة تبدو كما لو كانت ستنهار إذا أنت وضعت فوقها شيئاً . المدفأة كئيبة . ورق الحائط بشع .سقف الحجرة يبدو كما لو كان قد اندلق عليه فنجان قهوة، أما الزخارف.. حسناً إنها أسوأ من ورق الحائط.

هناك بالتاكيد مصنع سرى خاص لإنتاج زخارف الشقق المفروشة . إذ ستجد بالضبط نفس الأشياء فى كل الشقق المفروشة على طول البلاد وعرضها . ثم إنك لا تجدها أبداً فى أى مكان آخر! هناك الشيئان - ما اسمهما ؟ - اللذان يرقدان كل على طرف من طرفى رف المدفأة - الموقع خطر كما تعرف - وتلتف حول كل منهما قطع زجاجية مثلثة طويلة تقعقع سوياً وتسبب لك العصاب . وفى هذا النوع من الحجرات ستجد بجانب هذه الأعمال الفنية بضع قطع من الصينى يفترض أنها تمثل بقرة ترقد على رجليها الخلفيتين ، أو نموذجاً لمعبد ديانا فى إيفيسوس ، أو كلباً ، أو أى شىء آخر تتخيله . ستقابل فى مكان ما من الحجرة شيئاً صفراوياً تتصور عندما تراه لأول مرة أنه كتلة من «العجين» ، تركها أحد الأطفال ، فإذا ما تفحصته بدقة اكتشفت أنه يشبه كيوبيداً لم يتم تشكيله .. وتطلق صاحبة الشقة عليه عادة اسم «تمثال» . ثم هناك قطعة من شغل الإبرة أبدعها أبله من أفراد العائلة الكريمة ، وصورة لأحد رجال الهوجونوت، ثم شهادة مصقولة فى إطار فخيم تعلمك بأن الوالد قد حصن ضد الجدرى ، أو أنه شخص غريب الأطوار ، أو أى شىء من هذا القبيل .

تتفحص كل هذه المفاتن التى تخلب اللب ثم تسأل - منقبض الصدر - عن الإيجار . «إنها والله لصفقة طيبة» هكذا تقول بعد أن تسمع الرقم .

هنا تتملك السيدة صاحبة الشقة رغبة مفاجئة فى الصراحة فتقول : «حسناً ، إذا أردت الحقيقة ، لقد كنت أؤجرها فيما سبق بمبلغ (وتذكر

مبلغاً أكبر بكثير من المبلغ المشار إليه) ، وكنت قبل ذلك أؤجرها بمبلغ (ثم تذكر رقماً آخر أعلى من الأخير)».

إيجار الشقق منذ عشرين عاماً لابد أن كان مبلغاً يصيبك بالهلع! إن كل صاحبة شقة تجعلك تحس بالخجل المهين إذ تذكرك - كلما سنحت الفرصة - بأنها كانت تتقاضى ضعف ماتدفعه من إيجار . إن شباب الأيام الغابرة من الجيل السابق لابد أن كانوا من طبقة أثرى ، وإلا لأفلسوا تماماً ، ولو عشت فى أيامهم لكان علىّ أن أسكن فى عشة فوق السطح!

ثمة شيء غريب حول هذه الشقق ، هو أن قواعد الحياة فيها مقلوبة. فكلما ارتفع قدرك فى الدنيا كلما انخفضت قيمة الشقة التى تستأجرها . فعلى سلم هذه الشقق ستجد الفقير أعلى والغنى أسفل . يبدأ بالأتيك [1] ثم يأخذ طريقه إلى الطابق الأول .

الكثير جداً من كبار العظماء سكن فى الأتيكات ، والبعض منهم مات هناك . نعرف أن الأتيكات هى حجرات تستخدم فى تخزين سقط المتاع ، ولقد استغلها العالم فى تخزين قدر وافر من سقط المتاع فى وقت أو آخر . الكهنة والرسامون والشعراء ، المكتشفون من العلماء ، المتحمسون الذين يقولون الحقائق التى لا نحب سماعها .. هؤلاء هم سقط المتاع الذين يحجبهم العالم بعيداً فى الأتيكات . نشأ هايدن فى

---

(١) الأتيك هو الجزء من المبنى الذى يقع مباشرة تحت سطح البيت، ويستخدم كثيرا كمخزن للكراكيب .

حجرة من هذه ، ومات شاترتون جوعاً فى إحداها ، كتب أديسون وجولد سميث فيها ، وعرفها حق المعرفة فاراداى ودى كوينسى . عسكر فيها سعيداً الدكتور جونسون ، وعلى أسرتها الخفيفة كان ينام نوماً عميقاً - وأحياناً أعمق من اللازم . أمضى ديكنز فترة صباه بها ، وقضى مورلاند شيخوخته فيها - واحسرتاه ! شيخوخة مبكرة مخمورة. وهانس آندرسون - أمير عالم الجن - جاءته خيالاته الحلوة تحت أسقفها المنحدرة . وعلى موائدها الواهنة أسند كولينز المسكين المتمرد رأسه ، بنجامين فرانكلين المتزمت ، سافاج العنيد الذى كان يقلقه كثيراً أن يجد معه ما يكفى للنوم فى سرير مريح يفضل عتبة الباب ، بلومفيلد الشاب ، بوبى بيرنز ، هوجارت ، واطسن المهندس .. القائمة طويلة لا تنتهى ؛ فمنذ أن ابتكرت المساكن ذات الدورين أصبح الأتيك مرتعاً للعباقرة ! .

ليس هناك بين من يحترم أرستقراطية الذهن من يخجل من معرفته بها . حوائطها الرطبة مقدسة فى ذاكرة النبلاء . لو جمعت كل حكمة العالم وكل فنونه - كل الغنائم التى اكتسبها من الطبيعة وكل النيران التى قبسها من السماء - ثم قسمت إلى أكوام ، وأمكننا أن نشير مثلا قائلين : هذه الحقائق الهائلة لمعت فى هذا الصالون الرائع ، بين جلجلة الضحكات الرقيقة ولمعة الأعين الوضاءة ، وهذه المعرفة العميقة قد اكتشفت فى هذا المكتب الهادىء حيث صدر تمثال بالاس (إلهة الحكمة الإغريقية) ينظر فى وقار إلى أرفف ضمختها رائحة الجلد ، وهذا الكوم ينتمى إلى الشوارع المكتظة ، وهذا إلى الحقول المزهرة .. لو فعلنا هذا

فإن الكوم الذى سيعلو فوق ما عداه ، كما الجبل بين التلول ، سيكون هو الكوم الذى نرنو إليه عالياً ونقول : هذا هو أنبل الأكوام - هذه اللوحات الرائعة ، وهذه الموسيقى المدهشة ، وهذه الكلمات المدوية ، وهذه الأعمال الجسورة ، كلها قد تشكلت وصيغت وسط البؤس والألم فى قذارة الأتيكات . هناك من أوكارهم العالية - والعالم يتنهد ويخفق من تحتهم - أرسل ملوك الرجال أفكارهم تحلق عبر الزمن . من هناك حيث تتدفق أشعة الشمس من خلال الزجاج المتكسر لتسقط على الألواح الخشبية المتعفنة والحوائط المتهدمة ، من هناك ، من فوق عروشهم السامقة أطلق هؤلاء الكبار - فى أسمالهم البالية - صواعقهم، وهزوا الأرض حتى صميمها !

احشدهم يا أيها العالم فى الأتيكات ! احبسهم ، وأدر مفتاح الفقر دونهم ، أغلق القضبان ودعهم يبدون حياتهم البطولية بعيداً داخل القفص الضيق ، اتركهم هناك يموتون جوعاً ، يتهرأون ، ويموتون . اضحك وأنت تسمع أيديهم تضرب الباب فى جنون ، وتمرغ فى غبارك وضجيجك ، واتركهم للنسيان !

لكن حذار ! فقد ينقلبون ويلدغون . ليسوا جميعاً كالعنقاء الأسطورية ممن يشدون بأعذب الألحان وهم يتعذبون ، إنهم قد يلفظون السم أحياناً . السم الذى لابد أن تتنفسه - أردت أم لم ترد - لأنك لا تستطيع أن تغلق أفواههم ، وإن استطعت تقييد أطرافهم . يمكنك أن تغلق عليهم باباً ، لكنهم يفتحون نافذة متداعية ، ويصرخون يستنجدون

فيسمعهم الجميع . لقد طاردت روسو الجائع إلى أحقر غرفة فى شارع سان جاك وسخرت من صرخاته الغاضبة ، لكن نبرات صوته الحادة الضعيفة تضخمت وتحولت بعد مائة عام إلى الزئير الكئيب للثورة الفرنسية .. وما زالت المدنية حتى يومنا هذا ترتعش مع أصداء صوته !

أما عن نفسى ، أنا أعشق هذه الأتيكات ، ليس لأعيش فيها لا سمح الله ، فهى - كمكان للسكن - لا تريحنى ؛ ففيها من الصعود والنزول ما لا يالانمنى . إنها تذكرنى بطاحون الدوس . كما أن شكل السقف يقدم تسهيلات كثيرة جداً لارتطام الرأس ، وقليلة جداً للحلاقة . أضف إلى ذلك أن صوت القط وهو يغنى لليلاه فى الليل الساكن ، بالخارج فوق القرميد ، يصبح كريهاً بالتأكيد إذا سمعته من على مقربة!

كلا يا صديقى ! لسكناى اعطنى جناحاً بالدور الأول فى قصر البيكاديللى (أتمنى لو حقق بعضهم لى هذا المطلب) . أما إذا أردت لى مكاناً للتفكير ، فاعطنى أتيكا فى الدور العاشر فى أكثر أحياء المدينة ازدحاما . إن لدى وجداً بالأتيكات كوجد الهر تويفلروخ . ثمة عظمة تكتنف شموخها . إننى أعشق أن «أجلس على راحتى وأنظر من عل إلى عش الدبابير» ، أن أستمع إلى الهمهمة الغامضة للمد البشرى ، فى جزره وتدفقه الذى لا ينقطع عبر الشوارع والحوارى الضيقة . كيف يبدو الرجال صغاراً من عل ، كسرب من النمل محموم مرتبك فوق تل له صغير . يالتفاهة العمل الذى إليه يسرعون ويهرعون ! يالحماقة تدافعهم واحتكاكهم ببعضهم بعضاً يزمجرون ويلعنون . يرغون ويزبدون

ويصرخون ويشتمون ، لكن أصواتهم الضعيفة لا تصلنى هنا . يغتاظون ويغضبون ويلهثون ويموتون . «لكننى يا عزيزى فيرتر ، أجلس عالياً .. أجلس مع النجوم وحدى» .

كان أكثر الأتيكات التى صادفتنى غرابة أتيكا سكنت فيه من سنين بعيدة مع أحد الأصدقاء . كانت هذه الشقة هى أكثر الشقق شذوذاً . لابد أن المهندس الذى صممها . كان عبقريا ، وإن كنت أحب أن أقول : يا ليته وظف مواهبه فى ابتكار الألغاز والأحاجى ، لا فى تصميم مساكن البشر . ليس ثمة هندسة إقليدية يمكن أن تفيدك لتفهم هذه الشقة . بها سبعة أركان ، وبها حائطان ينحدران ويستدقان إلى نقطة ، والنافذة فيها تقع بالضبط فوق المدفأة . أما المكان الوحيد الذى يمكن أن تضع فيه هيكل السرير فيقع بين الباب ودولاب الحائط . فإذا أردت أن تخرج شيئا من الدولاب فعليك أن تزحف فوق السرير ، لتمتزج نسبة كبيرة من مختلف ما استخرجت من أغراض مع ملايات السرير والبطاطين . ستسقط إذن فوق السرير أشياء كثيرة طوال النهار ، فإذا ما حل الليل وجدته أشبه ما يكون بمخزن صغير لجمعية استهلاكية . كان الفحم هو أهم ما نخزنه فى الدولاب . كنا نخزنه فى الجزء السفلى منه . فإذا احتجنا شيئا منه ، كان علينا أن نتسلق السرير ، ونملأ الجاروف فحماً ثم نزحف خارجين . نمسك بأنفاسنا ، نثبت أعيننا على الجاروف ، ونحفظ توازننا لآخر حركة . وفى اللحظة التالية ستجدنا والفحم والجاروف والسرير وقد امتزجنا جميعا فى كتلة !

سمعت عن أناس يتطلعون فى نشوة إلى سرير الفحم . كنا نحن ننام كل ليلة فى مثل هذا السرير ، ولم يصبنا الغرور أبداً بسبب ذلك !

لكن الأتيك الخاص بنا - برغم تفرده - لم يستنفد كل إمكانيات المهندس الفكاهية . إن تنظيم البيت بأكمله معجزة إبداعية . فكل أبوابه تفتح للخارج ، فإذا ما أراد شخص أن يغادر الحجرة فى نفس اللحظة التى تود أنت الدخول فيها ، فسيحدث لك ما لا تحمد عقباه . ليس للبيت دور أرضى ، فالدور الأرضى فيه يخص منزلا فى الساحة المجاورة ، والباب الأمامى يفتح مباشرة على سلم يؤدى إلى القبو السفلى . فإذا ما دخل المنزل ضيف فسيفوته أن يلتقى بالشخص الذى نزل ليفتح له الباب ، ومن ثم فإنه يختفى فى هذا السلم . يتصور العصبيون من الضيوف عادة أن ثمة كمينا قد نصب لهم ، فتجدهم يصرخون يطلبون النجدة لأن هناك من سيقتلهم ، ويرقدون فوراً على ظهورهم أسفل السلم ويظلون هكذا حتى يأتى من ينهضهم من عثرتهم !

مضى وقت طويل منذ رأيت أتيكا من الداخل . جربت الكثير من الأدوار فى الفترة الأخيرة ، ولكنها جميعاً كانت عندى نفس الشىء . إن طعم الحياة واحد ، سواء احتسيتها من قدح من ذهب أو شربتها من كوب من حجر . تأتى الساعات مثقلة بنفس المزيج من البهجة والأسى ، أيا كان مكان لقائها . إن الصدر الحزين لا يهمه إن كان الصدار فوقه من جوخ أو من قطن ، وضحكنا له نفس البهجة سواء كنا فوق الحشايا المخملية أو فوق المقاعد الخشبية . يا كم تأوهت فى هذه الحجرات ذات

السقف الواطىء . لكن الحزن لم يصبح أقل ولم يصبح أكثر بعد أن تركتها . إن الحياة تعمل بتوازن تعادلى، فالسعادة التى نحظى بها فى اتجاه نفقدها فى آخر . كلما ازدادت إمكاناتنا ازدادت رغباتنا ، ونحن لا نقف أبداً فى منتصف الطريق . عندما نسكن فى الأتيك ، نتمتع بعشاء من السمك المقلى ، وعندما نسكن بالدور الأول فإن الأمر يتطلب عشاء متقنا فى فندق الكونتيننتال حتى نحقق نفس القدر من المتعة ! .

***

(١٣)
عن الملابس والسلوك

يقولون - يقول هؤلاء الذين يجب أن يخجلوا من أنفسهم - إن الشعور بحسن المظهر والهندام يذيع بهجة فى قلب الإنسان تعجز العقيدة عن إثارتها . أخشى أن يكون هؤلاء الساخرون فى بعض الأحيان على حق . أذكر أيام شبابى اليانع (من سنين طويلة طويلة ، كما يقولون فى الروايات) أننى كنت إذا أردت أن أشرح صدرى مضيت فارتديت أفضل ما لدى من ملابس . وإذا ما ضايقنى شىء - إذا ما طلبت غاسلة الملابس أن أسدد ما علىَّ مثلا ، أو إذا ما رُدت إلىَّ قصيدتى من الشعر المرسل للمرة العاشرة وعليها تحيات المحرر «واعتذاره بسبب ضيق المساحة عن إمكانية الانتفاع بعرضى السخى» ، أو إذا ما صدتنى المرأة التى أحبها كما لم يصد حبيب قبلا .. على الذكر ، إن تنويعة طرق الغرام لابد أن تكون حقا غريبة للغاية ، فكل منا يتدبر أمر الغرام بطريقة لم يسبقه إليها بشر . أنا لا أعرف كيف سيتصرف أحفاد أحفادنا . سيكون عليهم - فى أيامهم - أن يتدبروه وهم يقفون على رءوسهم ، إذا هم أصروا على أن يصطدموا بالطرق السابقة .

حسناً ، كنت أقول إنه إذا وقع أى من مثل هذه الأشياء الكريهة ، وأحسست بأننى مسحوق ، فإننى كنت أرتدى أفضل ثيابى وأخرج . كان هذا يعيد إلى ما أهدر من احترامى لذاتى .. قبعة لامعة جديدة ، وبنطلون مكوى بثنية واضحة على طول مقدمته (حفظت بعناية بوضعه تحت السرير ، لا أعنى على الأرض تحت السرير ، وإنما بين المرتبة والسرير) . عندئذ أحس بقيمتى ، وبأن هناك غاسلات للملابس غير هذه الحيزبون ، بل وبأن ثمة فتيات أخريات يمكن أن أحبهن ، فتيات يفضلن شاباً ذكياً وسيماً مثلى لا يهمنى عندئذ أى شىء . كانت هذه هى طريقتى المتهورة . سأمضى وأغازل فتيات أخريات . كنت أحس أننى قادر على هذا وأنا أرتدى هذه الملابس !

لها أثرها الكبير جداً فى أمر الغزل - تلك الملابس ! إنها نصف المعركة .. هكذا على الأقل يتصور الشباب ، فالأمر على أية حال يتطلب منه بضع ساعات حتى يهيىء نفسه للمناسبة . إنه يقضى أول نصف ساعة فى محاولة لتحديد البذلة التى سيرتديها :أتكون الخفيفة ،معها العصا والقبعة السمراء ، أم تكون السوداء ومعها المظلة الجديدة والقبعة العالية ؟ هو متأكد أن كلا الاختيارين لا يناسبه ! فإذا ارتدى البذلة الخفيفة وأخذ عصاه ، فستمطر ، وسيعود إلى المنزل مبتلا موحلا، ليقضى الأمسية فى محاولات يائسة لإخفاء حذائه . أما إذا قرر أن يلبس القبعة العالية وأخذ معه المظلة - ليس من يجرؤ على الخروج بقبعة عالية دون أن يحمل مظلة - فسيبدو كطفل (حفظه الله) يتدرب على المشى دون المربية . أوه ! لكم أكره القبعة العالية ! إنها تمكث معى زمناً

طويلا للغاية ، فأنا لا ألبسها إلا .. حسناً ، لا يهم حقا متى ألبسها . فالقبعة الموجودة لدى الآن عمرها خمس سنوات . اعتبرها الناس عتيقة الطراز فى العام الماضى ، لكن مودتها قد عادت ثانية وأصبحت هى المودة الجديدة .

دعنا نرجع إلى الشاب ومحاولاته فى الغزل . إذا ما بدأ رحلته بالقبعة العالية والمظلة ، فستقابله أمسية حارة جداً ، وسيسيل عرقه على كل الصابون بشاربه فيقضى عليه ، أما الخصلة فوق جبهته ، والتى تعب فى تشكيلها ، فتستحيل إلى شىء كربطة قش مترهلة ، أشبه ما تكون بأعشاب البحر . إن الحظ لا يواتى التعيس المسكين . فإذا ما تصادف أن وصل باب بيتها فى حالة طيبة ، فسيجدها قد خرجت مع ابنة عمها ، ولن تعود إلا متأخراً !

إن كل عاشق شاب - يرتدى بزته العصرية البلهاء ليغدو سخيفاً مضحكاً - لابد أن يحسد نبلاء الزمان القديم الذين عاشوا منذ سبعين عاماً ! انظر إلى هؤلاء النبلاء (على بطاقات المعايدة) بشعرهم الجعد ، وقبعاتهم الأنيقة ، وسيقانهم الجميلة تغلفها البنطلونات الضيقة ، وأحذيتهم العالية الوسيمة ، وريشهم المنفوش ، وعصيهم ونياشينهم تتدلى على صدورهم . لا غرو إذن أن تخفض العينين كل غادة تتيه فى قبعة حلوة ووشاح أزرق خفيف ، وأن تقع فى غرامهم ! يستطيع الرجال أن يفوزوا بالكثير وهم يرتدون مثل هذه الملابس . ماذا تتوقع من بنطلون فضفاض وسترة قصيرة ضيقة ؟!

إن أثر الملابس علينا أكبر مما نتخيل ، فسلوكنا انعكاس للباسنا . راقب رجلا يلبس أسمالا بالية ، وستجده يمشى فى حذر منكسا رأسه. اكسه بثياب بهية وستجده يتبختر فى الشارع العمومى يهز عصاه ، ويعاكس الفتيات ، ويختال كديك متغطرس !

إن الثياب تغير من نفس طبيعتنا . إن الرجل لايستطيع إلا أن يكون جسوراً وعنيفاً إذا ما كان ثمة ريشة فى قبعته ، وخنجر فى زناره ، وقدر كبير من أشياء بيضاء منتفخة على طول كمه ! أما إذا كان يرتدى معطفاً حقيراً فستجده يحاول أن يختبىء خلف عمود النور ، ويستدعى الشرطة !

إننى أسلم معك بأنك تستطيع أن تجد الطهارة الخالصة ، والأمانة المخلصة ، والإحساس المرهف ، وغير هذه من الفضائل ، أن تجدها وأكثر منها تحت القطن والتويد كما تحت الحرير والمخمل ، لكن روح الفروسية ، روح «أن تنطلق لتشن هجوماً من أجل حبك» و «أن تحارب من أجل بسمة الحبيبة» هذه الروح تحتاج إلى قعقعة الحديد وحفيف ذيل الحصان ! إن هذه الروح تطلب من يستدعيها من قبرها ، هناك ، بين طيات القماش المزركش المتربة ، وتحت الأوراق العفنة لسفر التاريخ العتيق !

يخيل إلىّ أن العالم قد غدا عجوزاً ! إن ملابسه الآن وقورة جداً . لقد اجتازت البشرية مرحلة الطفولة ، عندما كنا نتجول وليس فوق أجسادنا غير رداء طويل فضفاض ، ثم نحب أن نمشى حفاة . ثم جاء عصر الخشونة والهمجية - زمن الصبا لجنسنا - لم نكن نهتم فيها

كثيرا بما نلبس ، وإن كنا نجد البهجة فى أن نملأ أجسادنا بالوشم ، ثم إننا لم نكن نهتم بتصفيف شعرنا . وتحول العالم بعد ذلك إلى مرحلة شبابه ، وأصبح غندوراً متحذلقاً ، أطال شعره ولبس السترات القرمزية، ومضى يغازل ويتباهى ويتفاخر ويتبجح - ليقدم عرضاً رائعاً.

مضت أيام الشباب هذه ، أيام المرح والحماقة ، وأصبحنا الآن فى منتهى الرزانة والوقار - وفى منتهى الغباء أيضاً كما يدعى البعض . أصبح العالم الآن رجلا متزنا فى منتصف العمر ، فى هذا القرن التاسع عشر ، لا يتصور أن يرى نفسه فى الملابس المبهرجة . انطلق إذن يلبس المعاطف السوداء ، والبنطلونات السوداء ، والقبعات السوداء، والأحذية السوداء ، غدًا - ياللوعتى ! - رجلا محترماً للغاية ! ما عاد من الممكن أن يتسكع مثل التروبادور أو الفارس الشارد الهائم ويرتدى تلك الألوان الزاهية ! .. حسناً ، لقد غدونا فى غاية الحصافة فى أيامنا هذه .

أو هكذا - على الأقل - نتصور ! ثمة نظرية عامة حديثة تقول إن الحصافة تصطحب تبلد الحس !

والصلاح صفة أخرى تتوافق دائماً مع اللون الأسود . فالناس الطيبون حقاً - كما لابد وأن لاحظت - يلبسون دائماً الملابس السوداء، حتى القفاز وربطة العنق ، وأعتقد أنهم سيلبسون قريباً قمصاناً سوداء. أما نصف الطيبين فيتساهلون قليلا ويرتدون البنطلونات الخفيفة فى أيام العمل ، بل وقد يمضى البعض منهم إلى أبعد من ذلك فيرتدى صداراً ملوناً . ومن الناحية الأخرى ، سنجد أن البعض ممن ليس

لديهم تطلعات طبقية ، يرتدون بذلة خفيفة ، والحق أن بعض الأشقياء من هؤلاء قد تصل بهم الخلاعة إلى أن يضعوا فوق رءوسهم قبعة بيضاء . على أن أمثال هؤلاء لا يأتى ذكرهم على الإطلاق فى الأوساط الراقية ، وربما كنت قد أخطأت فعلا إذ تحدثت عنهم الآن .

على الذكر - ما دمنا نتحدث عن البذلة الخفيفة - هل لاحظت كيف ينظر إليك الناس عندما تخرج لأول مرة مرتديا بذلة خفيفة ؟ هم لا يهتمون بها كثيراً فيما بعد . سيتعود عليها سكان لندن عندما تخرج بها لثالث مرة . أقول عندما تخرج «أنت» بها ، لأننى لا أتحدث عن تجربتى الشخصية . أنا لا ألبس مثل هذه الأشياء على الإطلاق . إنما يلبسها - كما ذكرت لك - كل من هو آثم شرير .

لكم تمنيت ألا يكون الأمر هكذا ، وأن يغدو من الممكن أن تكون طيباً ومحترما وحصيفاً دون أن تتحول إلى أضحوكة . أنظر أحيانا فى مرآتى إلى رجلى بنطلونى الاسطوانيتين الطويلتين (وقد تمكنت منهما التجعدات عند الركبتين) ، والياقة المنتصبة والقبعة اللباد المستديرة ، ثم أتساءل : أى حق لى أن أتجول هكذا وأذيع البشاعة فى الكون ؟! يمتلىء قلبى عندئذ بالأفكار الشريرة المجنونة . أنا لا أريد أن أكون طيباً ولا محترماً (يقولون : إننى لا أستطيع أن أكون حصيفاً ، فالحصافة إذن موضوع لا يهمنى) . أريد أن أرتدى جاكتة ضيقة أرجوانية اللون ، وبنطلونا من المخمل الأحمر . وصداراً أخضر ذا خطوط صفراء ، وأن أحمل على كتفى عباءة حريرية ذات لون أزرق فاتح، وريشة نسر ترفرف فوق قبعتى ، وسيفاً كبيراً ، وصقراً ، ورمحاً،

وحصاناً يثب على قائمتيه الخلفيتين مرحاً ، حتى أستطيع أن أتحرك وأسعد أعين الناس . لماذا نحاول جميعا أن نبدو كالنمل يزحف فوق كوم تراب ؟! لماذا لا نلبس الملابس المرحة ؟! إننى متأكد أن هذا يجعلنا أسعد . صحيح أنه أمر بسيط ، لكننا جنس بسيط ، وما جدوى أن نتظاهر بعكس ذلك ، ونفسد البهجة ؟ دع الفلاسفة يحيلون أنفسهم إلى غربان مسنة إذا أرادوا . لكن دعونى أصبح فراشة !

على أية حال ، يجب أن تعتنى النسوة بملابسهن . هذا واجبهن . هن أزهار هذه الأرض ، والمفروض أن يظهرن هكذا . ونحن نظلمهن كثيراً ، نحن الرجال ، لكن - يعلم الله - أنه لولا ملابسهن الجميلة وأوجههن الحلوة لأصبح العالم قبيحاً ! يا كم يثرن من بهجة وإشراق فى كل مكان يدخلنه .

يالها من فوضى رائعة يذعنها - أقصد بالطبع بنات أعمامنا - فى حجراتنا نحن العزاب ، يا له من نثار فاتن يتركنه خلفهن ، أشرطتهن والأوشحة ، قفازاتهن والقبعات ، مظلاتهن والمناديل ! .. إن الشقة تبدو بعدهن وكأن قوس قزح تائه قد حل لزيارتنا !

من بين مباهج الصيف عندى أن أرى الغادات يخرجن فى ملابسهن الجميلة الملونة . أحب أن أرى الألوان القرنفلية والزرقاء والبيضاء وهى تبرق من بين الأشجار ، تجمّل الحقول وتعكس أشعة الشمس . يمكنك أن ترى هذه الألوان الساطعة من بعيد . هناك أربعة فساتين بيضاء تتسلق التل ، ويمكننى أن أراها الآن من نافذتى . أراها بوضوح بالرغم من أنها تبعد ثلاثة أميال . ظننت فى أول الأمر أنها بعض الشخصيات

المهمة فى رحلة ترفيهية . من اللطيف جداً أن تتمكن من رؤية حبيباتك وهن يتنزهن ، بعيداً عنك ، لاسيما إذا كان من بينهن زوجتك وحماتك .

ما دمنا نتحدث عن الحقول ومن يتنزه بها من نسوة ، فقد تذكرت الآن بضع كلمات أود أن أقولها - بكل جدية - عن أحذية النساء : إن نساء هذه الجزر البريطانية يرتدين أحذية أكبر بكثير من أقدامهن . المسكينات لا يستطعن أن يجدن الحجم المناسب من الأحذية . صانعو الأحذية لا يصنعون الأحذية الصغيرة الملائمة .

ياما مررت على نسوة توقفن عن صعود التل وجلسن جانباً ، ليصرحن بأنهن لا يستطعن أن يتقدمن خطوة واحدة لأن الحذاء يؤلمهن .. وكانت الشكوى دائماً واحدة : كبر حجم الحذاء .

ولقد حان الوقت لتغيير هذا الوضع .. فباسم كل الأزواج والآباء بهذه الدولة أدعو صانعى الأحذية إلى إصلاح الأمر . لا يصح أن تقاسى زوجاتنا وبناتنا وبنات أعمامنا وأخوالنا فيعرجن ويتعذبن ثم يفلت هؤلاء من العقوبة .

لماذا لا يتوافر مقاس ٢٤ فى المحلات ؟! هذا هو مقاس الحذاء الذى وجدته مناسباً لمعظم النسوة .

وحزام الوسط هو الآخر بند من بنود ملابس النسوة يوجد عادة فى مقاسات فضفاضة . فصانعو أردية النساء يجعلون هذا الحزام سائباً جداً حتى لتنفجر عروة تثبيته ما بين الحين والآخر فى انفجار مدو .

كيف تتحمل النساء كل هذا الحيف والجور ؟! لماذا لا يصررن على أن تصنع ملابسهن بالحجم الصغير المناسب ؟! هذا أمر لا أستطيع

فهمه يصعب القول إنهن ينفرن من أن ينشغلن بمثل هذه الأمور التافهة؛ لأن الملابس عندهن هى الموضوع الذى يستحق التفكير . إنها الموضوع الوحيد الذى يملأ ذهنهن تماماً ، من يتحدثن فيه طول اليوم من أوله إلى آخره . فإذا ما رأيت امرأتين سوياً ، فلك أن تراهن لآخر قرش فى جيبك أن موضوع المناقشة هو ملابسهما أو ملابس بعض الصديقات . لقد تلحظ غادتين تتحدثان من الشباك ، ولقد تتعجب أية كلمات عذبة رائعة تخرج من شفاهما المقدسة ، فإذا ما اقتربت سمعت إحداهما تقول :

– وعلى ذلك قمت بتضييق حزام الوسط ، وأصبح الرداء الآن رائعاً!

فتقول الأخرى :

– حسنا ، سأرتدى الثوب البرقوقى اللون فى زيارتى لآل جونز ومعه الصدار الأصفر . أتعرفين ، لقد وجدت قفازات فاخرة فى محل باطيك ، تصورى أن الثمن شلن وأحد عشر بنسا .

ذهبت مرة فى نزهة فى جزء من مقاطعة ديربيشاير ومعى سيدتان . كانت منطقة ريفية جميلة ، تمتعت بها السيدتان فعلا ، كانتا تتحدثان طول الوقت عن الملابس .

قلت لهما وأنا أشير بمظلتى : «منظر بديع ، هذا المنظر ! انظرا إلى تلك التلال البعيدة الزرقاء ، هذه البقعة الصغيرة البيضاء فى حضن الغابة هى تشاسويرت ، وهناك ...»

تجيب واحدة : «نعم نعم ، جميلة حقاً .. حسناً ، لماذا لا تبتاعين متراً من السارسنيت ؟» .

- ماذا ؟! وأترك «الجونلة» كما هى بالضبط ؟

- بكل تاكيد .. ماذا كنت تقول ؟ ما اسم هذه البلدة ؟

ثم قد أوجه اهتمامهما إلى الجمال الغض ينساب إلى المشهد ، فتلتفتان حولهما وتقولان : «بديع» ، «جميل حقاً» .. ثم تبدآن مباشرة فى التحدث فى جذل عن مناديلهما ، ثم تندبان ، ثم سوء حال الأنسجة القطنية هذه الأيام .

إننى أعتقد أننا لو تركنا امرأتين فى جزيرة وحدهما ، فستقضيان أيامهما جميعاً فى جدل عن المزايا النسبية لكل من الأصداف وبيض الطيور كمواد للزركشة، وستبتكران فى كل شهر مودة جديدة من ورق التوت .

والشباب الصغير السن يفكرون كثيراً فى الملابس ولكنهم لا يتحدثون عن ذلك فيما بينهم ، إذ لن يجد أى منهم الأذن الصاغية . فالرجل الغندور ليس محبوبا داخل جنسه ، بل إنه يلاقى من سوء المعاملة ما لايحتمل . ومثل هذا العيب لا ضرر منه ، ثم إنه يختفى سريعاً . كما أن كل من لا يتغندر فى سن العشرين سيصبح فى سن الأربعين رجلا قذر الملابس . إن القليل من الغندرة بالنسبة للشباب أمر مفيد ، إنه صفة بشرية . أحب أن أشهد ديكاً صغيراً ينفش ريشه ، ويمد رقبته ، ثم يصيح كما لو كان العالم كله بعض ممتلكاته ! وأنا لا أحب الرجل المتواضع الخجول ، بل ولا أعتقد أن هناك من يحبه ، برغم كل ما نسمع من ثرثرة وهذيان عن أهمية التواضع .

إن السلوك الحليم خطأ كبير فى عالمنا هذا . كان والد أوريا هيب حكما سيئا للغاية بالنسبة للسلوك البشرى ، وإلا لما قال لابنه : إن

الناس تحب التواضع . ليس هناك ما يضايقهم مثل التواضع .. خذها قاعدة ! إن الشجار هو نصف السعادة فى هذه الحياة ، وأنت لا تستطيع أن تتشاجر مع المتواضع الحليم . إنه يكبح غضبك ، وهذا بالضبط ما لا تريد . إننا نريد أن نطرد الغضب . إننا نثير أنفسنا حتى نصل إلى حالة من الغضب المنعش ، وفى اللحظة التى نتوقع فيها بهجة القتال ، إذا بهم يفسدون كل خططنا بتواضعهم المزعج !

لاشك فى أن حياة زانتيب كانت حياة قاسية ، إذا عرفنا أن زوجها كان سقراط الهادئ المتزن . تخيل امرأة متزوجة حكم عليها الزمن أن تحيا حياتها كلها دون ما شجار واحد مع زوجها ! يلزم أن يداعب الرجل زوجته بهذه الأشياء ! يعلم الله وحده أن حياتهن مملة مملة ! هن لا يتمتعن بما نتمتع به نحن الرجال . هن لا يرتَدْن الاجتماعات السياسية ، ولا ينتمين إلى برلمان الهواة ، وهن يستبعدن من عربات التدخين فى وسائل المواصلات ، وهن لا يقرأن المجلات الفكاهية ، أو إذا قرأنها فلن يعرفن أنها فكاهية .. فليس من يخبرهن بذلك .

المفروض إذن - مع وجود كل هذا الفراغ العقيم فى حياة المرأة - أن نتيح لهن فرصة شجار لتسليتهن ما بين الفينة والفينة ، حتى عندما لا تكون لدينا الرغبة فى ذلك . إن الرجل الحصيف حقاً يفعل ذلك ، وهن يحببنه لهذا السبب . تذكر أن مثل هذه الأعمال الطيبة الصغيرة هو ما يمضى مباشرة إلى قلب المرأة . إن مثل هذه البراهين على التضحية بالنفس من أجل الحب ، هو ما يجعلها تحكى لصديقاتها عن طيبة زوجها - بعد أن يتوفاه الله .

نعم ، لابد أن حياة زانتيب كانت حياة بائسة . إن قصة دلقها الدلو فوق رأسه لابد أن كانت قصة تعيسة . لقد تصورتُ أن هذا قد يثيره ولو قليلا . لقد أتعبت نفسها حتى ملأت الدلو ، وربما كان عليها أن تمشى مشواراً طويلاً حتى تجد ماء فيه من القذارة ما يكفى ، ثم كان عليها أن تنتظر وصوله . وبعد كل هذا ، كيف يقابل عملها بهذه الطريقة ؟! أتصور أنها جلست تبكى وتنتحب . ياللمسكينة ، لابد أن الدنيا قد أظلمت فى وجهها وتصورت أن لاشىء يفيد . ولم تكن لها - لحد ما - أمًا تلجأ إليها لتشتم زوجها !

ماذا يفيدها إن كان زوجها فيلسوفا كبيراً ؟ إن الفلسفة العظيمة لا تهم فى الحياة الزوجية .

كان هناك مرة صبى طيب جداً أراد أن يركب البحر . سأله القبطان عما يستطيع أن يفعل . قال : إنه يستطيع أن يسمّع جدول الضرب بالمقلوب ، وأنه يستطيع أن يلصق أعشاب البحر فى كراسة ، وأنه يعرف عدد المرات التى ذكرت فيها كلمة «أنجب» فى التوراة ، وأنه يحفظ أشعاراً كثيرة لويردزورث .

قال القبطان : «حسن جداً ، حسن جداً يا ولدى . ولكن هل تستطيع أن تحمل قفة فحم فوق رأسك ؟» .

إن نفس هذا الوضع ستقابله إذا أردت أن تتزوج . إن القدرة الهائلة أمر غير مطلوب ، إنما المطلوب هو الأشياء العملية الصغيرة . إن ذهنك الكبير يحسب ضدك . ليس هناك من يحتاجه ، بل وليس من

يقدره حق قدره .. زوجاتنا تقدرنا طبقا لمستويات تخصصهن ، يحصل فيها الذكاء على صفر . إن زوجتك أو حبيبتك لا تتأثر بذكائك ونبوغك يا عزيزى القارئ - إطلاقاً ! إنها تريد رجلا يستطيع أن يؤدى ما تطلبه منه كلما طلبته منه دون أن يحاول أن يتدخل فى الأمر بذهنه ، رجلاً يمكن أن تثق هى فى أنه يستطيع أن يحمل الطفل بالطريقة الصحيحة ، رجلا لا يغضب إذا وجد الأكل بارداً . هذا يا صديقى هو الزوج الذى تفضله كل امرأة عاقلة ، وهى لا تحب رجلا مزعجاً يهتم بالعلم والأدب ، يفسد نظام البيت بأكمله ، ويزعج كل من فيه بحماقته ! .

***

(١٤)
عن الذاكرة

«لازلت أذكر، لازلت أذكر في أيام نوفمبر الباردة كيف كان الشحرور على..»

آه! لقد نسيت الباقي.. كان هذا مطلع أول قصيدة حفظتها، ذلك أننى لم أهتم كثيراً بقصيدة:

«هاى! ديدل ديدل دان
القطة والكمان»

فقد وجدت أسلوبها يتسم بالإستهتار، ويفتقر إلى مقومات الشعر. جمعت أربعة بنسات عندما ألقيت قصيدة «لازلت أذكر، لازلت أذكر». أتذكر أن المبلغ كان أربعة بنسات، فقد قيل لى إننى لو احتفظت بها حتى أحصل على بنسين آخرين، فستكون حصيلتى ستة بنسات. حجة كما ترى لاتنكر، لكنها لم تحرك فى شعرة، فبددت المبلغ - على ما أذكر - فى صبيحة اليوم التالى، وإن كنت لا أذكر فيم بددته.

هذا هو الحال دائماً مع الذاكرة، فلا شئ مما تعيده لك يعود كاملا. هى طفل عنيد حطم كل ماليديه من دمى. أذكر أننى تعثرت يوماً وأنا طفل صغير وسقطت فى حفرة عميقة. لكننى لا أذكر كيف خرجت منها.

فإذا كان لى ألا أثق إلاّ فى ذاكرتى، فالمؤكد أننى لازلت هناك. فى وقت آخر بعد سنين من تلك الواقعة، كنت أساهم فى مشهد غرامى فى غاية الروعة، لكن كل ما أذكره هو أن شخصاً ما، فى اللحظة الحرجة، فتح الباب فجأة وقال: «يا إميلى، تعالى هنا!».. قالها فى نبرة كئيبة توحى بأن البوليس لاشك قد جاء يبحث عنها. ضاع تماماً من ذاكرتى كل ما قالته لى من كلمات رقيقة، وضاع كل ما همست به لها من أشياء جميلة!

ما الحياة إلا شظايا حطام، إذا أنت التفت يوماً خلفك وتأملتها.. أعمدة مبعثرة هنا حيث كان يقف مدخل قصر منيف، مقبض شباك مكسور ملقى من بقايا مخدع سيدتى الجميلة، وكوم من الأحجار الداكنة يكسوه الفطر يقف حيث كان الشعور الملتهب وحيث كانت الأشنة وحيث كان اللبلاب المتسلق.

يلوح كل شئ لطيفاً إذا نظرت إليه من خلال ضباب الزمن. حتى الأحزان الماضية تبدو حلوة. أيام صباك تبدو لك الآن مرحة، كلها بهجة ورقص وحلوى. كل التوبيخ وكل آلام الأسنان وكل أفعال اللغة اللاتينية قد نسيت جميعاً، وأخص بالذكر الأفعال اللاتينية. نتوهم أننا فى غاية السعادة ونحن مراهقون نحب، ثم نتمنى لو استطعنا أن نعشق من جديد، لا ولن نفكر فى انكسار القلب وليالى السهاد وجفاف الحلق عندما قالت إنها لا يمكن أن تنظر إلينا إلا كأخت، وكأن كل ما كان ينقصنا هو أخت جديدة!

نعم، ذلك الألق - لا الظلام - هو ما نرى إذا ما نظرنا وراءنا. بريق البهجة لايلقى ظلالاً على الماضى. الطريق الذى اجتزناه يمتد جميلا من خلفنا. ما كان فيه من عثرات لانراه. حياتنا فوق الورود على جانبى الطريق، أغصانها التى وخزتنا، هى فى أعيننا - مجرد محاليق رهيفة تلوح فى الهواء. حمداً لله، حمداً لله أن سلسلة الذاكرة الطويلة، التى تزداد طولا، لايربطها إلا حلقات بهيجة، وأن مرارة اليوم وأحزانه لاتجلب فى الغد سوى البسمة.

يبدو كما لو كان الجانب الأزهى من كل شئ هو أيضاً الأسمى والأفضل. فعندما تغوص حياتنا الصغيرة فى بحر النسيان المظلم، سيكون الأجمل منها والأكثر إشراقاً هو آخر ما يغرق، سيبقى فوق الأمواه، ماثلا أمام العين، بينما تدفن الأفكار الغاضبة والآلام المضنية عميقاً تحت الأمواج، تحمل معها كل ما يزعجنا.

روعة الماضى هذه - فى رأيى - هى التى تجعل كبار السن يثرثرون بكل هذا الهراء عن أيام صباهم.يبدو أن العالم كان على أيامهم مكاناً أسمى وأرفع، وكانت الأشياء فيه أقرب ما تكون إلى الكمال. كان الأولاد فيه أولاداً، وكانت البنات فيه بناتاً.. مختلفات!.. كان الشتاء أيضاً يشبه الشتاء، ولم يكن الصيف أبدا ذلك الفصل الفظيع الذى نبتلى به الآن. أما عن الأعمال المدهشة التى كان الناس يقومون بها فى تلك الأيام، وعن الوقائع الرائعة التى كانت تحدث آنئذ، فإن الأمر يتطلب ثلاثة رجال أشداء حتى يمكن تصديق نصفها لا أكثر!

أعشق الاستماع إلى واحد من هؤلاء «العتاقى» وهو يقص ذكرياته أمام مجموعة من الشباب يعرف أنهم لايستطيعون معارضته. سيكون من الغريب - بعد فترة - ألا يحلف لهم أن البدر كان يسطع كل ليلة أيام كان صبياً، وأن صر الثيران الهائجة فى الملاءات كان الرياضة المفضلة بمدرسته.

هكذا كان الأمر دائما، وهكذا سيظل . فالعتاقى أيام كان جدى صبيا كانوا يغنون أغنية تحمل بالضبط نفس الفكرة، وسيعزف شباب اليوم نفس اللغو فيما بعد ليغضبوا الجيل التالى. «آه! لو ترجع تلك الأيام الجميلة التى مضت من خمسين عاماً!»، كانت هذه هى الصيحة التى لازالت تتكرر منذ أطلقها سيدنا آدم يوم عيد ميلاده الواحد والخمسين. الحكايا تقول إن العالم يغدو أسوأ وأسوأ منذ خلقه الله. وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن العالم لابد أن كان مكاناً جميلاً حقاً عندما فتح أبوابه للجمهور أول مرة، لأنه لايزال جميلاً حتى الآن - إذا مكثت أطول وقت ممكن فى الشمس، وتحملت المطر بروح مرحة.

لابد أن العالم كان أحلى بعض الشئ فى ذلك الصباح الندى عند الافتتاح، عندما كان نقياً ونديا، عندما لم تكن ملايين الأقدام قد وطئت أعشابه ودنستها، ولم تكن آلاف المدن قد طردت منه السكون إلى الأبد. لابد أن الحياة كانت نبيلة وجليلة أيام أجدادنا الحفاة العراة وهم يسيرون يداً بيد مع الملائكة تحت قبة السماء الرائعة . عاشوا فى خيام قبلتها الشمس، وسط خوار الأبقار، يلتقطون حاجاتهم البسيطة من يد

الطبيعة المعطاء. كدحوا وتكلموا وفكروا. كانت الأرض العظيمة تدور فى سكون، لم تكن بعد قد حملت المشاكل والضلال.

مضت وانقضت تلك الأيام. انقضت الطفولة السعيدة للإنسانية قضتها فى باحات الغابات النائية عند الأنهار الهامسة. ثم انطلقت الحياة البشرية تتوغل إلى طور الرجولة ما بين الضجيج والشك والرجاء. مضى عصرالسلام المطمئن. ثمة عمل فى انتظار من يكمله، لابد من السرعة. أما كنه العمل - حصة هذا العالم من الخطة الإلهية - فهو ما لا ندريه. لكن أيدينا تسهم - لاواعية - فى تنفيذه. كمثل حشرة المرجان الدقيقة، تعمل عميقاً فى الأمواه المظلمة. هكذا نناضل ونكافح، كل إلى مثواه الصغير، آه لو ندرى شيئاً عن الهيكل الهائل الذى نقيمه!

دعنا ننفض أيدينا من ذاك الندم، وذلك الشوق العقيم إلى أيام مضت لن تعود أبداً. العمل أمامنا لا خلفنا. شعارنا «إلى الأمام»! لماذا نجلس بأيد مطوية نحدق فى الماضى كأنه الهيكل، وماهو غير قاعدة الهيكل؟! لماذا نبدد العزم والحياة نفكر فيما كان مفروضاً أن يكون، وننسى ما يرقد أمامنا مما قد يكون؟! تضيع منا الفرص بينا نجلس نندب حظاً ضاع، فلا ننتبه إلى القادم من هناءة لأن سعادة أفلتت منا يوماً.

من سنين بعيدة عندما كنت أهيم تاركاً مدفأة البيت أرود أرض حكايا الجن العذبة، قابلت فارساً باسلا وأصيلا. يا كم تغلب على المخاطر، ياما جاب من بلاد، حتى عُرف شجاعاً مجربا لا يأتيه الخوف.

إلا - ربما - فى تلك اللحظات التى يشعر فيها الشجاع بالخوف ثم لايخجل من البوح به، كان هذا الفارس على حصانه منطلقاً فى طريق وعر، عندما أحس بالهواجس تملأ قلبه بعد ما قاساه من أهوال ورأى من متاعب. يالها من صخرة هائلة رهيبة تلك التى تتدلى بعيداً فوق رأسه، أتراها ستسقط وسيرقد تحتها! ثمة هوّة سحيقة على كل من جانبى الطريق، وكهوف مظلمة يقطنها اللصوص الضوارى وتنين مخيف فمه يقطر دماً. أمامه يتمدد على الطريق ظلام الليل. فكر فارسنا الطيب فى أن يتوقف وأن يبحث عن طريق آخر أقل خطراً لايرهق جواده المطهم. التفت ونظر خلفه . يالهول ما رأى، وياللدهشة التى أصابته. ليس من أثر تراه عين للطريق الذى اجتازه . تحت حوافر جواده كانت ثمة هاوية فاغرة فاها. عميقة كانت لم يسبر قرارها أحد. لا أمل فى العودة إلى وراء، هكذا عرف. صلى لله . وخز الجواد بمهمازه، وإلى الأمام بشجاعة انطلق، تغمره بهجة عارمة! لا ولم يؤذه شئ!.

ليس ثم من عودة فى طريق الحياة . إن قنطرة الزمن الرهيفه التى عليها نخطو، تغوص ترتد إلى السرمدى، مع كل خطوة نخطوها يضيع منا الماضى إلى الأبد. لقد جمع وخزن. لم نعد نملكه . كل ما قيل قيل. كل خطوة خطوناها كانت.. الأجدر بنا كفرسان إذن أن نمضى فى طريقنا بشجاعة، لا أن نبكى لأننا لم نعد نستطيع أن نتذكر.

تبدأ مع كل ثانية حياة جديدة لنا. دعنا نتجه إليها فى حبور نلاقيها. دعنا نشق طريقنا نحوها، أعيننا إلى الأمام تجاهها لا إلى الخلف.

جاءنى صديق منذ أيام يحثنى بفصاحة بالغة على أن أتعلم نظاماً رائعاً به لاتنسى شيئاً . لا أعرف سبب اهتمامه بذلك، إلا إذا كان قد لاحظ أننى استعير مظلته ما بين الحين والحين، وأننى أنسى ما أحمل من أوراق أثناء لعب «الكوتشينة». رفضت الاقتراح برغم فوائده الرائعة التى شرحها صديقى بطريقة تخلب اللب. ليس لدى الرغبة فى أن أتذكر كل شئ. ثمة أشياء كثيرة فى حياة معظمنا يحسن أن تنسى. من سنين بعيدة سلكنا سلوكاً غيرمشرف وغير أخلاقى، ما كان يجب أن نسلكه . ذلك الانحراف غير الملائم عن الطريق القويم، الذى ارتكبناه يوماً، والذى يزيد من قسوته أنه قد اكُتشف، هذا الفعل الأحمق الدنئ الظالم!.. حسناً، لقد أخذنا جزاءنا وقاسينا ساعات عصيبة من ندم عقيم ومن خجل مؤلم عظيم، وأكاد أقول، ومن سخرية من نحب. دعنا إذن ننسى. يا أيها الزمن، ادفع بيديك هذه الذكريات المرة عن قلوبنا المثقلة بالهموم، فالأحزان يا أبانا تأتى لا تنى فى كل ساعة، وما نملك غير جهد يوم.

لا أقصد أن ندفن الماضى برمته. تصمت موسيقى الحياة فتصبح بكماء إذا تمزقت أوتار الذاكرة جميعاً . إنما نجتث الحشائش السامة لا الأزهار من حديقة الذكريات . أو تذكر شخصية الرجل الذى مسه الجن عند ديكنز؟ وكيف كان يصلى من أجل النسيان، فلما تحقق له ما أراد عاد يصلى من أجل أن تعود ذكرياته؟ إننا لا نود أن ندفن كل الأشباح، إنما فقط تلك الشرسة الوحشية التى نهرب منها . لكن، أهلا بتلك الرقيقة الحالمة وقتما تشاء.. من يخشاها؟. ويحى! يمتلئ العالم

بالأشباح مع تقدم العمر. لايلزم أن تقصد المقابر أو تنام فى المنازل الريفية المهجورة حتى ترى أوجهها المبهمة وتسمع حفيف ثيابها فى الليل. كل بيت له شبحه الملازم، كل حجرة، كل كرسى ذى صرير. الأشباح تسكن كل حيز فارغ فى حياتنا. إنها تحتشد من حولنا كأوراق الشجر الذابلة تذورها رياح الخريف. البعض منها حى والبعض ميت. إنا لا نعرف. لقد صافحنا أيديها يوماً، أحببناها يوماً، تشاجرنا وإياها، ضحكنا معها، روينا لها أفكارنا وأمانينا، وروت لنا. فكأنما قلوبنا قد توحدت لا يفرقها ولا حتى الموت. ضاعت منا إلى الأبد. أعيننا لن تنظر فى أعيننا ثانية. لن نسمع أصواتها مرة أخرى. إلا أشباحها. إنها تأتى وتتحدث معنا، نراها غامضة مبهمة من خلال دموعنا. نمد إليها أيدينا المشتاقة، لكنها هواء! الأشباح! إنها معنا ليل نهار، تلازمنا فى الشوارع المزدحمة تحت وهج الشمس، تجلس بجوارنا بالمنزل ونحن نرقب شفق الغروب، نرى أوجهها الصغيرة تنظر من نوافذ المدرسة القديمة. نقابلها فى الغابات وفى الحارات حيث تصايحنا ولعبنا أيام كنا صبية. أصخ! ألا تسمع ضحكاتها الرقيقة من خلف الشجيرات، وهتافها البعيد من الباحات المعشوشبة! ها هنا عبر الحقول الهادئة قرب الغابة حيث تتوارى ظلال السماء، ها هنا يلتوى الطريق حيث تعودنا أن ننتظر عند الغروب. أنظر! ها هى ذى تعود بعباءتها الأنيقة البيضاء التى نعرفها، قلنسوتها الكبيرة تتدلى من يديها الصغيرتين، وشعرها المسفوع المرح يتشابك! أبعيدة هى خمسة آلاف ميل؟ أميتة هى بالنسبة لنا؟ إنها بجوارنا الآن، ننظر فى عينيها الضاحكتين. ونسمع صوتها.

آه ستتلاشى على باب الغابة وسنغدو وحدنا! ستزحف الظلال عبر الحقول وستمسنا رياح الليل مساً رقيقاً. الأشباح! إنها دائماً معنا، وستبقى دوماً معنا. يظل العالم القديم الحزين يرجع صدى تنهدات الفراق الطويلة، بينما تقلع البواخر بعيداً تعبر البحار الواسعة، وتظل الأرض الباردة الخضراء ترسخ ثقيلة فوق قلوب من نهوى.

يا أيتها الأشباح! العالم لولاك يصبح أكثر حزناً. تعالى إلينا، حدثينا. يا أشباح رفاق اللهو، ويا أشباح أحباب الشباب، ويا أشباح أصدقائنا القدامى! إلينا تعالوا، وامكثوا معنا، فالعالم دونكم موحش، والأصدقاء الجدد والأوجه الجديدة ليست أبداً كالقديمة. لانستطيع أن نحبهم، لا ولا أن نضحك معهم كما كنا نحب ونضحك معكم. عندما كنا سويا - آه يا أشباح شبابنا - كان العالم مرحاً وضاء، لكنه غدا الآن عجوزاً، وأصبحنا وقد ملأنا الضجر، وليس غيركم من يستطيع أن يعيد إلينا البهجة والنضرة.

الذاكرة توقظ الأشباح. هي كالبيت المسكون، حوائطه ترجع دوماً أصداء أقدام لاترى. من خلال نوافذ الباب المكسورة نرقب ظلال الموتى ترفرف بأجنحتها. وأكثر هذه الظلال كآبة ظلال أنفسنا نحن، الميتة!.

آه من تلك الأوجه الوضاءة الشابة، يملؤها الصدق والشرف، تملؤها الأفكار النقية الطيبة، يملؤها الشوق النبيل. آه من أعينها العميقة الصافية تلومنا إذ ننظر إليها!

أخشى أن يكون لديها السبب المقنع كى تحزن! يالها! زحف إلى قلوبنا الكذب والمكر والجحود منذ انقضت أيام كنا لانحلق فيها ذقوننا، لكن كنا نود لو أصبحنا عظماء نبلاء!

حمداً لله أنَّا لانستطيع أن نرى المستقبل. كم غر فى الرابعة عشرة لا يخجل مما سيكونه فى الأربعين؟

أحب أحياناً أن أجلس لأتحدث مع ذاك الغر الذى كنته من زمان طويل. أعتقد أنه أيضاً يحب ذلك، لأنه كثيراً ما يعاودنى فى المساء عندما أكون منفرداً مع غليونى أصغى إلى همس اللهب بالمدفأة. أرى وجهه الصغير الجليل ينظر إلىَّ عبر الدخان العطر إذ يطفو سابحاً إلى أعلى، فأبسم له، ويبسم لى، سوى أن بسمته حزينة وقورة عتيقة الطراز. نتحدث عن أيامنا الماضية، فيأخذ بيدى ما بين الحين والحين، ثم ننسل عبر حاجز الموقد لنمر بالفراغ المتوهج القاتم خلف ضوء المدفأة. هناك نجد أيامنا التى كانت، فنهيم معها جميعاً، بينا هو يحكى لى عن كل ما يفكر فيه ويحس به، فأضحك منه، ثم فى لحظة أتمنى لو لم أكن قد ضحكت، إذ يظهر عليه الأسى. أخجل من طيشى، فهذا أمر لا يليق أمام من هو أكبر سناً، هو الذى كاننى من زمان طويل قبلما أصبح نفسى.

لا نتحدث كثيراً فى بادئ الأمر، وإنما ينظر كل منا إلى الآخر. أنا أتأمل شعره الجعد ورباط رقبته الصغير الأزرق، وهو يرمقنى بطرف عينه. أتخيل أن عينه الخجولتين الواسعتين لايوافقان علىّ تماما. يطلق تنهيدة قصيرة كما لو كان أمله فىّ قد خاب. لكنه بعد فترة يتغلب على

حياته فنبدأ حديثنا فى غير كلفة يحكى لى ما يحبه من حكايات الجن اللطيفة. يستطيع أن يحكى منها ستا. بابا يقول إن حكايات الجن خرافية، أليس هذا مما يؤسف له؟ لكم ود لو كان فارساً يحارب التنين ويتزوج أميرة جميلة! هاهو ذا يتخذ نظرة واقعية بعد أن بلغ السابعة، ويتمنى لو كبر وأصبح قائداً لمركب كبير للرحلات فيكسب الكثير. ربما كان هذا بسبب وقوعه فى الحب آنذاك. عشق الصغيرة التى تعمل فى محل بيع اللبن (بارك الله فى قدمها الصغير الراقص، أيا كان حجمه الآن!). لابد أنه كان مولعاً بها تماماً، فلقد أعطاها يوماً أثمن كنوزه، أقصد تلك المطواة الضخمة ذات النصال الأربعة الصدئة، والبريمة. كان لتلك البريمة موهبة خاصة فى أن تجد سبيلها بطريقة غامضة فتشك ساق حاملها. كانت فتاة عاطفية رقيقة، ألقت بذراعيها حول عنقه وقبلته. شكراً. لكن العالم الغبى (ويمثله شخص الصبى الذى يعمل بمحل السجائر المجاورة) سخر من تذكارات الحب هذه. إذ ذاك استعد صديقى كى يلكم رأس الصبى الذى يعمل بمحل السجائر المجاورة. غير أن محاولته قد فشلت، بل وكانت النتيجة هى أن لكمه هذا الصبى!

ثم تأتى حياة المدرسة، بأحزانها الصغيرة المرة، وصيحاتها البهيجة، ولهوها المرح، ودموعها الساخنة تساقط فوق كراسات قواعد اللغة اللاتينية الفظة وعلى الدفاتر القديمة البلهاء. كان أيامها فى المدرسة عندما أصيب بجرح عمره - كما أعتقد أنا - وهو يحاول أن ينطق الألمانية. وأيامها عرف أيضاً بالأهمية البالغة التى توليها الأمة الفرنسية للأقلام والحبر والورق. كان السؤال الذى يلقيه الفرنسى على

أخيه الفرنسي إذ يلقاه هو: «هل معك أقلام وحبر وورق؟». لن يكون مع الآخر - كقاعدة - شيء من هذا، لكنه يقول: إن عم أخيه يمتلك هذه الأشياء الثلاثة. لايبدو أن الأول يهتم على الإطلاق بعم شقيق الثاني. إن ما يود الآن أن يعرفه هو ما إذا كان جار والدة الثاني يمتلكها. هنا يرد الثاني في عصبية مؤكداً أن جار والدته لايمتلك أقلاماً ولا حبراً ولا ورقاً. فيسأله الأول: «وهل يمتلك ابن البستاني بحديقتكم بعض الأقلام وبعض الحبر وبعض الورق؟». يصبح حالنا جميعاً مثيراً للشفقة عندما نعلم أن ابن البستاني ليس في حوزته قلم أو حبر أو ورق. مثل هذا الاكتشاف قمين بأن يسكت الجميع، إلا مدرس اللغة الفرنسية. إنه لايتأثر على الإطلاق ولا يفكر في الاعتذار وإنما يمضي ليخبرنا أن لدى عمته قدراً من المسطردة.

هكذا يتوارى عهد الصبا ونحن نكتسب معرفة لا نفع فيها ولا فائدة، لننساها في سعادة، على الفور. يختفي من الصورة مبنى المدرسة بطوبه الأحمر، لنتحول إلى طريق الحياة الواسع. لم يعد صديقي الصغير صغيراً الآن. أنبتت جاكتته الصغيرة ذيولا. أصبحت قلنسوته الصغيرة عالية لامعة، وهي التي كان يستعملها كمنديل وكوب شرب وسلاح هجوم. استبدل بقلم الإردواز في فمه، سيجارة، يضايقه دخانها إذ يتسلل إلى أنفه. جرب السيجار بعد فترة لأنه أكثر أناقة. استخدم سيجار «هافانا» كبيراً أسود، لكنه لم يوافقه كثيراً. فقد وجدته فيما بعد يجلس فوق دلو بالمطبخ وهو يسب ويلعن في وقار، ويحلف أن لن يدخن ثانية.

ها قد بدأ شاربه فى الظهور حتى ليمكنك أن تراه بالعين المجردة. عندئذ ابتدأ يحتسى البراندى بالصودا، وتخيل أنه رجل. ابتدأ يهمهم يحكى خسائره على مائدة القمار تلك الليلة بأسلوب يفهم منه أنه خسر الآلاف - وحتى لا أظلمه، فالأغلب أنه خسر شلناً وبنسين. ثم أنه - إذا لم تخنى الذاكرة، فأرض الذكريات يغمرها دائماً ضوء الشفق- قد وضع نظارة على عينيه، وابتدأ يتعثر فى كل شئ!

أما معارفه من جنس النساء، وبعد أن أقلقهن تفاقم تلك الأشياء، فقد بدأن الصلاة من أجله (بارك الله فى قلوبهن الرقيقة)، واعتقدن أن مثل هذا الانغماس فى الملذات سيؤدى به إلى محكمة الجنايات تمهيداً لحبل المشنقة. تنبأ ناظر مدرسته له بسوء المآل، وها قد بدأ رأيه يتخذ صورة النبوءة الملهمة!

فى هذا السن نما لديه شعور متعال بازدراء الجنس الآخر، وفكرة عن شخصه يملؤها الغرور، وسلوك اجتماعى يتنازل فيه فيرعى كل الذكور من أصدقاء العائلة المسنين. علينا فى الحق أن نعترف عموماً بأنه كان شخصا مزعجاً فى ذلك العمر.

على أن هذا لم يستمر طويلا. وقع فى الحب بعد فترة وجيزة فكانت نهاية تبجحه. الاحظ الآن أن حذاءه قد غدا صغيراً جداً بالنسبة لقدمه، وأن شعره مصفف بشكل رهيب رائع، أخذ يقرأ الشعر كما لم يقرأ قبلا، واستحضر كتاباً فى العروض وضعه فى حجرة نومه. فى كل صباح كانت الخادمة تجد بقايا أوراق ممزقة تقرأ فيها «القلوب القاسية وسهام الحب القاتلة» أو «الأعين الجميلة وتنهدات العشاق».

وغير ذلك كثير من الأغاني القديمة التى يحب الشبان غناءها وتحب البنات الاستماع إليها، وهن يلتفتن وينظرن بعيداً يتظاهرن بعدم الإصغاء.

. يبدو أن قصة الحب لم تمض كما يجب. سنجده بعد فترة - يا للمسكين - يمارس تدريبات طويلة فى المشى وفى قلة النوم.. الأمر الذى لايفيده كثيراً. بدت على وجهه كل الأحاسيس إلا أفراح الزواج والسعادة المرتقبة.

يبدو أنه اختفى هنا. مضى شخصى - الصبى الصغير - الذى نما بجوارى ونحن نمشى.

وحدى أنا الآن! الطريق مظلم مظلم. أتعثر، لا أعرف كيف، ولا أهتم. الطريق على ما يبدو يقود إلى لامكان. ليس ثمة ضوء يرشدنى.

لكن الصباح جاء، أخيراً جاء! ووجدت أننى قد كبرت وأصبحت نفسى!..

***

الفهرس

ص



روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع